في ظلال القرآن

الجزء السابع والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء السابع والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الذاريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة والحديد



بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَ إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ .

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ .

« قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ : أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ، هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَ بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَمَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ .

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ؟ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَاماً قَالَ : سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ، قَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا : لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ *

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ : عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا : كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ؟ * قَالُوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ .

« فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

« وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ .

« وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ .

« وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ : تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ .

« وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ .

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ، وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ .

« كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ .

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ » .

هذه السورة ذات جو خاص . فهى تبدأ بذكر قوى أربعة .. من أمر الله .. فى لفظمهم الدلالة ، يوقع فى الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر . يقسم الله — تعالى — على أمر : « والذاريات ذروا ،فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا،فالمقسمات أمرا . إن ماتوعدون لصادق. وإن الدين لواقع » . .

والذاريات . والحاملات . والجاريات . والمقسمات .. مدلولاتها ليست متعارفة ،وهى غامضة تحتاج إلى السؤال والاستفسار ، كما أنها بذاتها تلقى فى الحس ذلك الظل . ولعله هو المقصود الأول منها فى جو هذه السورة .

ومايكاد القسم الأول ينتهى حتى يعقبه قسم آخر بالسماء : « والسماء ذات الحبك » .. يقسم بها الله تعالى . على أمر : « إنكم لفى قول مختلف » . . لا استقرار له ولاتناسق فيه ، قائم على التخرصات والظنون ، لاعلى العلم واليقين . .

هذه السورة : بافتتاحها على هذا النحو ، ثم بسياقها كله ، تستهدف أمرا واضحا فى سياقها كله .. ربط القلب البشرى بالسماء ؛ وتعليقه بغيب الله المكنون ؛ وتخليصه من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله ، والانطلاق إليه جملة ، والفرار إليه كلية ، استجابة لقوله فى السورة : « ففروا إلى الله » .. وتحقيقا لإرادته فى عباده: « وماخلقت الجن والإنس إلاليعبدون » ..

ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدها فقدعنى فى هذه السورة بإطلاق الحس من إساره ، وتطمين النفس من جهته ، وتعليق القلب بالسماء فى شأنه ، لابالأرض وأسبابها القريبة . وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر فى السورة فى مواضع متفرقة منها . إما مباشرة كقوله : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » . . « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . . وإما تعريضا كقوله يصور حال عباده المتقين مع المال : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » . . ووصفه لجود إبراهيم وسخائه وهو يقرى ضيوفه

القلائل ـ أومن حسبهم ضيوفه من الملائكة ـ بعجل سمين ، يسارع به إليهم عقب وفودهم إليه ، وبمجرد إلقاء السلام عليه ، وهو لم يعرفهم إلا منذ لحظة !

فتخليص القلب من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من إسار الرزق ، وتعليقه بالسماء ، ترف أشواقه حولها ، ويتطلع إلى خالقها فى علاه ، بلاعائق يحول بينه وبين الانطلاق ، ويعوقه عن الفرار إلى الله . هو محور السورة بكل موضوعاتها وقضاياها التى تطرقها . ومن ثم كان هذا الافتتاح ، وكان ذلك الإيقاع الغامض فى أولها ، وكان القسم بعده بالسماء ، وكان تكرار الإشارة إلى السماء أيضا ..

وفى هذا كانت صورة المتقين التى يرسمها فى مطلع السورة: « إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل مايهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .. فهى صورة التطلع إلى الله ، والتجرد له ، والقيام فى عبادته بالليل، والتوجه إليه فى الأسحار . مع إرخاص المال ، والتخلص من ضغطه ، وجعل نصيب السائل والمحروم حقا فيه .

وفى هذا كان التوجيه إلى آيات الله فى الأرض وفى الأنفس مع تعليق القلوب بالسماء فى شأن الرزق ، لا بالأرض ومافيها من أسبابه القريبة : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون . وفى السماء رزقكم وماتوعدون » ..

وفى هذا كانت الإشارة إلى بناء الله للسماء على سعة ، وتمهيده للأرض فى يسر ، وخلقه ما فيها من أزواج، والتعقيب على هذا كله بالفرار إلى الله: « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » ..

وفى هذا كان الإيقاع الأخير البارز فى السورة ، عن إرادة الله سبحانه فى خلق الجن والإنس ، ووظيفتها الرئيسية الأولى : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ..

فهو إيقاع واحد مطرد . ذو نغمات متعددة . ولكنها كلها تؤلف ذلك الإيقاع ، وتطلق ذلك الحداء . الحداء بالقلب البشرى إلى السماء !

وقد وردت إشارات سريعة إلى حلقة من قصة إبراهيم ولوط ، وقصة موسى ، وقصة عاد ،

وقصة ثمود ، وقصة قوم نوح . وفى الإشارة إلى قصة إبراهيم تلك اللمحة عن المـال ؛ كما أن فيها لمحة عن الغيب المكنون فى تبشيره بغلام عليم ، ورزقه هو وامرأته به على غير ماتوقع ولاانتظار . وفى بقية القصص إشارة إلى تصديق وعد الله الذى أقسم عليه فى أول السورة : « إن ماتوعدون لصادق » . والذى أشار إليه فى ختامها إنذارا للمشركين:« فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلايستعجلون ».. بعد ما ذكر أن أجيال المكذبين كأنما تواصت على التكذيب : « كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلاقالوا:ساحر أومجنون. أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ! » ..

فالقصص فى السورة — على هذا النحو — مرتبط بموضوعها الأصيل . وهو تجريد القلب لعبادة الله ، وتخليصه من جميع العوائق ، ووصله بالسماء. بالإيمان أولا واليقين . ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم .

* * *

« والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا .. إن ماتوعدون لصادق ، وإن الدين لواقع » ..

هذه الإيقاعات القصيرة السريعة ، بتلك العبارات الغامضة الدلالة ، تلقى فى الحس — كما تقدم— إيحاء خاصا ، وتلقى ظلا معينا ، يعلق القلب بأمر ذى بال، وشأن يستحق الانتباه. وقد احتاج غير واحد فى العهد الأول أن يستفسر عن مدلول الذاريات ، والحاملات ، والجاريات، والمقسمات . .

قال ابن كثير فى التفسير : قال شعبة ابن الحجاج ، عن سماك ابن خالد ابن عرعرة، أنه سمع عليا — رضى الله عنه — وشعبة أيضا عن القاسم ابن أبى بزة ، عن أبى الطفيل ، أنه سمع عليا — رضى الله عنه — وثبت أيضا من غير وجه عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب — رضى الله عنه — أنه صعد منبر الكوفة فقال : لاتسألونى عن آية فى كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلا أنبأتكم بذلك. فقام ابن الكواء ، فقال:ياأمير المؤمنين، مامعنى قوله تعالى : « والذاريات ذروا »؟قال على — رضى الله عنه:الريح . قال : « فالحاملات وقرا » ؟ قال — رضى الله عنه — : السحاب . قال : « فالجاريات يسرا » ؟ قال — رضى الله عنه — : السفن . قال : « فالمقسمات أمرا » ؟ قال — رضى الله عنه — : الملائكة .

وجاء صبيغ ابن عسل التميمى إلى عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فسأله عنها فأجابه بمثل ماروى عن على ابن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وقد أحس عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه يسأل عنها تعنتا وعنادا فعاقبه ومنعه من مجالسة الناس حتى تاب وحلف بالأيمان المغلظة : مايجد فى نفسه مما كان يجد شيئا .. وهذه الرواية تشى كذلك بأن غموض مدلولات هذه التعبيرات هو الذى جعل المتعنتين يستترون وراءها ويسألون عنها !

وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر ـ رضى الله عنهم ـ ومجاهد وسعيد ابن جبير والحسن وقتادة والسدى وغير واحد ؛ ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم غير ذلك (كما قال ابن كثير).

أقسم الله ـ سبحانه ـ بالرياح التى تذرو ماتذروه من غبار وحبوب لقاح وسحب وغيرها مما يعلم الإنسان ومايجهل . وبالسحاب الحاملات وقرا من الماء يسوقها الله به إلى حيث يشاء . وبالسفن الجاريات فى يسر على سطح الماء بقدرته وبما أودع الماء وأودع السفن وأودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا الجريان اليسير . ثم بالملائكة المقسمات أمرا ، تحمل أوامر الله وتوزعها وفق مشيئته ، فتفصل فى الشؤون المختصة بها ، وتقسم الأمور فى الكون بحسبها .

والريح والسحاب والسفن والملائكة خلق من خلق الله ، يتخذها أداة لقدرته ، وستارا لمشيئته ، ويتحقق عن طريقها قدر الله فى كونه وفى عباده . وهو يقسم بها ـ سبحانه ـ للتعظيم من شأنها ،وتوجيه القلوب إليها،لتدبر ماوراءها من دلالة ؛ ولرؤية يدالله وهى تنشئها وتصرفها وتحقق بها قدر الله المرسوم . وذكرها على هذه الصورة بصفة خاصة يوجه القلب إلى أسرارها المكنونة ؛ ويعلقه بمبدع هذه الخلائق من وراء ذكرها هذا الذكر الموحى .

ثم لعل لها كذلك صلة من ناحية أخرى بموضوع الرزق ، الذى يعنى سياق هذه السورة بتحرير القلب من أوهاقه ،وإعفائه من أثقاله . فالرياح والسحب والسفن ظاهرة الصلة بالرزق ووسائله وأسبابه . أما الملائكة وتقسيمها للأمر ، فإن الرزق أحد هذه القسم . ومن ثم تتضح الصلة بين هذا الافتتاح وموضوع بارز تعالجه السورة فى مواضع شتى .

يقسم الله ـ سبحانه ـ بهذه الخلائق الأربع على : « إن ماتوعدون لصادق . وإن الدين لواقع » .. وقد وعدالله الناس :أنه مجازيهم بالإحسان إحسانا ، ومجازيهم بالسوء سوءا . وأنه إذا أمهلهم الحساب فى الأرض ، فليس بمهمل حسابهم فى الآخرة فالحساب لابد منه هناك ! « وإن الدين لواقع » .. فالوعد صادق حتما إماهنا وإماهناك . . ومما وعدهم كذلك الرزق

وكفالته لهم مبسوطا أومقدرا — وفق مشيئته — ووعده حق فى هذا كما هو حق فى كل شأن .

ولا بد أن يتحقق ما وعد الله به الناس فى الصورة التى يريدها ،وفى الوقت الذى يريده، وما يحتاج الأمر إلى قسم منه — سبحانه— إنما يقسم بخلائقه تلك لتوجيه القلب إليها —كما تقدم— وتدبر ما وراءها من إبداع وقدرة وتدبير يوحى للقلب بأن وعد الله — بارىء هذه الخلائق بهذا النظام وهذا التقدير — لابد صادق ؛ وأن حسابه على الخير والشر والصلاح والفساد لابد واقع . فإن طبيعة هذه الخلائق توحى بأن الأمر ليس عبثا ولامصادفة ولاجزافا .. وهكذا تصبح تلك الخلائق آيات وبراهين ذات دلالة إيحائية قوية بفضل هذا القسم الذى يلفت القلب إليها لفتا ، ويوجه الحس إليها توجيها . فهى طريقة من طرق الإيحاء والتربية، ومخاطبة الفطرة بلغة الكون خطابا مباشرا !

* * *

والقسم الثانى كذلك ..

« والسماء ذات الحبك ، إنكم لفى قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك » . .

يقسم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب . كتنسيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات . . وقد تكون هذه إحدى هيئات السحب فى السماء حين تكون موشاة كالزرد مجعدة تجعد الماء والرمل إذا ضربته الريح . وقد يكون هذا وضعا دائما لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة المتناسقة .

يقسم بالسماء المنسقة المحبوكة على أنهم فى قول مختلف ، مضطرب لا قوام له ولا قرار ، ولا ثبات له ولا استقرار ،يصرف عنه من صرف ويبقى عليه من بقى ، فلا استقرار عليه ولا توافق ولا ثبات . بل الحيرة دائمة والقلق لايزال . وكذلك الباطل دائما أرض مرجرجة مهتزة ؛ وتيه لامعالم فيه ولا نور ؛ وهو يتأرجح ولا يفىء إلى أصل ثابت ، ولا ميزان دقيق . ولا يجتمع عليه أهله إلا لينصرفوا ويتفرقوا بعد حين ؛ ويدب الخلاف بينهم والشقاق . .

ويتضح اضطرابهم واختلافهم وماهم فيه من الأمر المريج : حين يعرض فى ظل السماء ذات الحبك المنسقة التركيب :

ثم يستطرد فيقرر أنهم يعيشون فى أوهام وظنون فى أمر الآخرة ، لايستندون فيها إلى حق أو يقين . فهم فى قول مختلف فى هذا الحق المبين . ثم يصور لهم ذلك اليوم فى مشهدحى تتملاه العيون :

« قتل الخراصون . الذين هم فى غمرة ساهون . يسألون : أيان يوم الدين ؟ يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فتنتكم ، هذا الذى كنتم به تستعجلون » . .

والخرص : الظن والتقدير الجزاف الذى لايقوم على ميزان دقيق . والله ــ سبحانه ــ يدعو عليهم بالقتل. فياللهول ! ودعوة الله عليهم بالقتل قضاء بالقتل ! « قتل الخراصون » ويزيد أمرهم وضوحا : « الذين هم فى غمرة ساهون » فهم مغمورون بالأضاليل والأوهام لايفيقون ولا يستيقظون. والتعبير يلقى ظلا خاصا ، يصور القوم مغمورين ساهين لا يشعرون بشىء مما حولهم ولا يتبينون . كأنهم سكارى مذهولون !

ذلك أنهم لايتبينون الأمر الواضح ، الذى يراه ويوقن به كل واع غير مذهول ؟ فهم « يسألون : أيان يوم الدين » ؟ يسألون هكذا ، لاطلبا للعلم والمعرفة ، ولكن استنكاراً وتكذيبا ، واستبعادا لمجيئه ، يعبر عنه لفظ « أيان » المقصود !

ومن ثم يعاجلهم بمشهدهم فى هذا اليوم الذى يستبعدونه ويستنكرونه ؛ وهم يحرقون بالنار كحرق المعدن لتميز حقيقته : « يوم هم على النار يفتنون » ! ومعه التبكيت المؤلم فى الموقف العصيب : « ذوقوا فتنتكم . هذا الذى كنتم به تستعجلون » . .

فهذه المعاجلة هى الجواب اللائق بهذا التساؤل . وهذا العنف فى المشهد هو المقابل للذهول والسهوة التى يعيش فيها الخراصون . وهو مصداق دعوة الله عليهم بالقتل فى أشد صوره وأعنفها : يوم هم على النار يفتنون !

* * *

وعلى الضفة الأخرى وفى الصفحة المقابلة يرتسم مشهد آخر ، لفريق آخر ، فريق مستيقن لايخرص ؛ تقى لايتبجح ؛ مستيقظ يعبد ويستغفر ، ولايقضى العمر فى غمرة وذهول:

« إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل مايهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » . .

فهذا الفريق . فريق المتقين . الأيقاظ . الشديدى الحساسية برقابة الله لهم ، ورقابتهم هم لأنفسهم . هؤلاء « فى جنات وعيون » . . « آخذين ما آتاهم ربهم » من فضله وإنعامه، جزاء ماأسلفوا فى الحياة الدنيا من عبادة لله كأنهم يرونه ، ويقين منهم بأنه يراهم : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » . .

وتصور إحسانهم صورة خاشعة . رفافة حساسة :

« كانوا قليلا من الليل مايهجعون . وبالأسحارهم يستغفرون » ..

فهم الأيقاظ فى جنح الليل والناس نيام ، المتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام لايطعمون الكرى إلاقليلا ، ولايهجعون فى ليلهم إلايسيرا . يأنسون بربهم فى جوف الليل ، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ويخف بهم التطلع فلايثقلهم المنام !

قال الحسن البصرى : « كانوا قليلامن الليل مايهجعون » .. كابدوا قيام الليل،فلاينامون من الليل إلاأقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر .

وقال قتادة : قال الأحنف ابن قيس : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » .. كانوا لاينامون إلا قليلا . ثم يقول : لست من أهل هذه الآية !

وقال الحسن البصرى: كان الأحنف ابن قيس يقول. عرضت عملى على عمل أهل الجنة ، فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا ، إذ نحن قوم لانبلغ أعمالهم. كانوا قليلا من الليل مايهجعون. وعرضت عملى على عمل أهل النار ، فإذا قوم لاخيرفيهم، مكذبون بكتاب الله وبرسل الله مكذبون بالبعث بعد الموت . فقد وجدت من خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحاوآخر سيئا .

وقال عبد الرحمان ابن زيد ابن أسلم : قال رجل من بنى تميم لأبى : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا . ذكر الله تعالى قوما فقال : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » . ونحن والله قليلا من الليل مانقوم ! فقال له أبى — رضى الله عنه — : طوبى لمن رقد إذا نعس ، واتقى الله إذا استيقظ.

فهى حال يتطلع إليها رجال من التابعين — ذوى المكانة فى الإيمان واليقين — ويجدون أنفسهم دونها . اختص بها ناس ممن اختارهم الله ، ووفقهم إلى القيام بحقها . وكتبهم بها عنده من المحسنين .

وهذه حالهم مع ربهم ، فأما حالهم مع الناس ، وحالهم مع المال ، فهو مما يليق بالمحسنين :

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » . .

فهم يجعلون نصيب السائل الذى يسأل فيعطى ، ونصيب المحروم الذى يسكت ويستحي فيحرم . يجعلون نصيب هذا وهذا حقا مفروضا فى أموالهم . وهم متطوعون بفرض هذا الحق غير المحدود .

وهذه الإشارة تتناسق مع علاج السورة لموضوع الرزق والمال ، لتخليص القلب من أوهاق الشح وأثقال البخل وعوائق الانشغال بالرزق . وتمهد للمقطع التالى فى السورة ، فى الوقت الذى تكمل سمة المتقين وصورة المحسنين .

***

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ وفى السماء رزقكم وما توعدون. فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » . .

وهى لفتة إلى آيات الله فى الأرض وفى الأنفس ؛ وتوجيه إلى السماء فى شأن الرزق المكتوب والحظ المقدور . تختم بقسم عظيم . قسم الله ـ سبحانه ـ بذاته بوصفه : «رب السماء والأرض » اللتين ورد ذكرهما فى هذا المقطع . على أن هذا القول الذى جاءهم من عنده حق يقين . .

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟ . .

هذا الكوكب الذى نعيش عليه معرض هائل لآيات الله وعجائب صنعته . معرض لم نستجل منه حتى اللحظة إلا القليل من بدائعه . ونحن نكشف فى كل يوم جديدا منه ، ونطلع منه على جديد . . ومثل هذا المعرض معرض آخر مكنون فينا نحن . . النفس الإنسانية . . الخفية الأسرار ، التى تنطوى فيها أسرار هذا الوجود كله ، لا أسرار الكوكب الأرضى وحده !

وإلى هذين المعرضين الهائلين تشير الآيتان تلك الإشارة المختصرة ، التى تفتح هذين المعرضين على مصاريعهما لمن يريد أن يبصر ، ولمن يريد أن يستيقن ، ولمن يريد أن يملأ حياته حتى تفيض بالمتعة والمسرة ، وبالعبرة الحية ، وبالرصيد القيم من المعرفة الحقة ، التى ترفع القلوب وتضاعف الأعمار !

والنصوص القرآنية معدة للعمل فى جميع الأوساط والبيئات والظروف والأحوال . قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس ولكل عقل ولكل إدراك . كل بقدر مايتقبل منها ومايطيق.

وكلما ارتقى الإنسان فى المعرفة ، واتسعت مداركه ، وزادت معلوماته ، وكثرت تجاربه ، واطلع على أسرار الكون وأسرار النفس . . ارتقى نصيبه ، وتضخم رصيده ، وتنوع زاده الذى يتلقاه من نصوص القرآن . . هذا الكتاب الذى « لاتنفد عجائبه ، ولايخلق على كثرة الرد » كما يقول عنه النبى الذى تلقاه واستوعب أسراره ، وعاش بها . يقول: عن تجربة حية وجدها فى نفسه فعبر عنها ذلك التعبير ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله فى الأرض وآياته فى النفس ، نصيبهم ، وتسلموا رصيدهم ، وفق معارفهم وتجاربهم وإشراقات نفوسهم . ووجد كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيبا يناسب ماتفتح له من أنواع العلوم والمعارف والتجارب. ونجد نحن نصيبنا وفق مااتسع لنا من رقعة العلم والمعرفة والتجريب ، وماتكشف لنا من أسرار لاتنفد فى هذا الكون الكبير . وستجد الأجيال بعدنا نصيبها مدخرا لها من الآيات التى لم تكشف لنا بعد فى الأرض والنفس . ويبقى هذان المعرضان الإلهيان الهائلان حافلين بكل عجيب وجديد إلى آخر الزمان .

هذه الأرض . هذا الكوكب المعد للحياة ، المجهز لاستقبالها وحضانتها بكل خصائصه ، على نحو يكاد يكون فريدا فى المعروف، لنا فى محيط هذا الكون الهائل ، الحافل بالنجوم الثوابت والكواكب السيارة . التى يبلغ عدد المعروف منها فقط ـ والمعروف نسبة لاتكاد تذكر فى حقيقة الكون ـ مئات الملايين من المجرات التى تحوى الواحدة منها مئات الملايين من النجوم . والكواكب هى توابع هذه النجوم !

ومع هذه الأعداد التى لاتحصى فإن الأرض تكاد تنفرد باستعدادها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته. ولو اختلت خصيصة واحدة من خصائص الأرض الكثيرة جدا لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها . . لو تغير حجمها صغرا أو كبرا . لو تغير وضعها من الشمس قربا أو بعدا . لو تغير حجم الشمس ودرجة حرارتها . لو تغير ميل الأرض على محورها هنا أوهنا. لو تغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو بطأ . لو تغير حجم القمر ـ تابعها ـ أو بعده عنها . لو تغيرت نسبة الماء واليابس فيها زيادة أو نقصا . . . لو . لو . لو . . . إلى آلاف الموافقات المعروفة والمجهولة التى تتحكم فى صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته.

أليست هذه آية أو آيات معروضة فى هذا المعرض الإلهى ؟

ثم . هذه الأقوات المذخورة فى الأرض للأحياء التى تسكنها . تسكن سطحها ، أو تسبح فى أجوائها ، أو تمخر ماءها ، أو تختبئ فى مغاورها وكهوفها ، أو تختفى فى مساربها وأجوافها. . هذه الأقوات الجاهزة المركبة والبسيطة والقابلة للوجود فى شتى الأشكال والأنواع لتلبى حاجة هذه الأحياء التى لاتحصى ، ولا تحصى أنواع غذائها أيضا . . هذه الأقوات الكامنة فى جوفها ، والسارية فى مجاريها ، والسابحة فى هوائها ، والنابتة على سطحها ، والقادمة إليها من الشمس

ومن عوالم أخرى بعضها معروف وبعضها مجهول ، ولكنها تتدفق وفق تدبير المشيئة المدبرة التى خلقت هذا المحضن لهذا النوع من الحياة ، وجهزته بكل مايلزم للأنواع الكثيرة التى لاتحصى.

وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها ، حيثما امتد الطرف ، وحيثما تنقلت القدم . وعجائب هـذه المشاهد التى لاتنفد : من وهاد وبطاح ، ووديان وجبال ؛ وبحار وبحيرات ، وأنهار وغدران . وقطع متجاورات، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان .. وكل مشهد من هذه المشاهد تتناوله يد الإبداع والتغيير الدائبة التى لاتفتر عن الإبداع والتغيير . ويمر به الإنسان وهو ممحل فإذا هو مشهد ، ويمر به وهو ممرع فإذا هو مشهد آخر . ويراه وهو نبت خضر فإذا هو مشهد ، ويراه إبان الحصاد حين يهيج ويصفر فإذا هو مشهد آخر . وهو هو لم ينتقل باعا ولا ذراعا فى المكان !

والخلائق التى تعمر هـذه الأرض من الأحيـاء . نباتا وحيوانا . وطيرا وسمكا ، وزواحف وحشرات .. بله الإنسان فالقرآن يفرده بنص خاص .. هـذه الخلائق التى لم يعرف عدد أنواعها وأجناسها بعد ــ فضلا على إحصاء أعدادها وأفرادها وهو مستحيل ــ وكل خليقة منها أمة ! وكل فرد منها عجيبة . كل حيوان . كل طائر . كل زاحفة . كل حشرة . كل دودة . كل نبتة: لا بل كل جناح فى ورقة ، وكل ورقة فى زهرة ، وكل قصبة فى ورقة ! فى ذلك المعرض الإلهى العجيب الذى لاتنقضى عجائبه .

ولو مضى الإنسان ــ بل لو مضى الأناسى جميعا ــ يتأملون هكذا ويشيرون مجرد إشارة إلى مافى الأرض من عجائب ، وإلى ماتشير إليه هذه العجائب من آيات ، ماانتهى لهم قول ولا إشارة . والنص القرآنى مايزيد على أن يوقظ القلب البشرى للتأمل والتدبر، واستجلاء العجائب فى هذا المعرض الهائل ، طوال الرحلة على هذا الكوكب ؛ والمتعة بما فى هذا الاستجلاء من مسرة طوال الرحلة .

غير أنه لايدرك هذه العجائب ، ولايستمتع بالرحلة هذا المتاع ، إلا القلب العامر باليقين . « وفى الأرض آيات للموقنين » . . فلمسة اليقين هى التى تحيى القلب فيرى ويدرك ؛ وتحيى مشاهد الأرض فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة ، وتحدثه عما وراءها من تدبير وإبداع . وبدون هذه اللمسة تظل تلك المشاهد ميتة جامدة جوفاء ؛ لاتنطق للقلب بشىء؛ ولاتتجاوب

معه بشيء . وكثيرون يمرون بالمعرض الإلهي المفتوح مغمضي العيون والقلوب . لايحسون فيه حياة ، ولايفقهون له لغة ؛ لأن لمسة اليقين لم تحي قلوبهم ، ولم تبث الحياة فيما حولهم!وقد يكون منهم علماء . « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » . أما حقيقتها فتظل محجوبةعنقلوبهم ، فالقلوب لاتفتح لحقيقة الوجود إلابمفتاح الإيمان ،ولاتراها إلابنور اليقين..وصدق الله العظيم.

ثم العجيبة الأخرى التي تدب على هذه الأرض :

« وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » ..

وهذا المخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض . ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن أسراره الكامنة في كيانه ، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين .

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني : في أسرار هذا الجسد . عجيبة في تكوينه الروحي : في أسرار هذه النفس . وهو عجيبة في ظاهرهوعجيبة في باطنه . وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير . تكوين أعضائه وتوزيعها . وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف . عملية الهضم والامتصاص . عملية التنفس والاحتراق . دورة الدم في القلب والعروق . الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم . الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسدونشاطه وانتظامه . تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها،وتجاوبها الكامل الدقيق . وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب .وفي كل عضو وكل جزء منعضو خارقة تحير الألباب .

وأسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة .. إدراكه للمدركات وطريقةإدراكها وحفظها وتذكرها . هذه المعلومات والصور المختزنة . أين ؟ وكيف ؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت ؟ وأين ؟ وكيف تستدعى فتجيء .. وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى . فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر . تظهر آثاره بين الحين والحين في لمسات وإشراقات تدل على ماوراء الظاهر من المغيب المجهول .

ثم أسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه . خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص ؛ وتحملمعها خصائص الأبوين والأجداد القريبين. فأين تكمن هذه الخصائص

فى تلك الخلية الصغيرة ؟ وكيف تهتدى بذاتها إلى طريقها التاريخى الطويل ، فتمثله أدق تمثيل، وتنتهى إلى إعادة هذا الكائن الإنسانى العجيب ؟ !

وإن وقفة أمام اللحظة التى يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض، وهو ينفصل عن أمه ويعتمد على نفسه ، ويؤذن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة . إن وقفة أمام هذه اللحظة وأمام هذه الحركة لتدهش العقول وتحير الألباب ، وتغمر النفس بفيض من الدهش وفيض من الإيمان ، لايقف له قلب ولا يتماسك له وجدان !

وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التى يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات . بل أمام النطق ذاته. نطق هذا اللسان. وتصويت تلك الحنجرة . إنها عجيبة . عجيبة تفقد وقعها لأنها تمر بنا كثيرا . ولكن الوقوف أمامها لحظة فى تدبر يجدد وقعها . إنها خارقة . خارقة مذهلة تنبىء عن القدرة التى لا تكون إلا لله .

وكل جزئية فى حياة هذا المخلوق تقفنا أمام خارقة من الخوارق، لاينقضى منها العجب ؛ «وفى أنفسكم . أفلا تبصرون ؟ » ..

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده . ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله فى صورة خاصة لاتتكرر أبدا على مدار الدهور . ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعا لا فى شكله وملامحه، ولا فى عقله ومداركه ، ولا فى روحه ومشاعره . ولا فى صورة الكون كما هى فى حسه وتصوره. ففى هذا المتحف الإلهى العجيب الذى يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبعة فريدة لاتتكرر . يمر من خلالها الوجود كله فى صورة كذلك لاتتكرر . كما لاتوجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى فى هذه الأرض فى جميع العصور !

وكثير من عجائب الجنس البشرى مكشوفة للبصر، تراه العيون: «وفى أنفسكم أفلا تبصرون؟» : وما تراه العيون من عجائبه يشير إلى المغيب المكنون .

وهذه العجائب لايحصرها كتاب . فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات . والمجهول منها مايزال أكثر من المعلوم، والقرآن لايحصيها ولا يحصرها. ولكنه يلمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لهذا المتحف الإلهى المعروض للأبصار والبصائر . وليقضى رحلته على هذا الكوكب فى ملاحظة وتدبر ، وفى متاع رفيع بتأمل هذا الخلق العجيب ، الكامن فى ذات نفسه وهو عنه غافل مشغول .

وإنها للحظات ممتعة حقا تلك التي يقضيها الإنسان يتأمل وجوه الخلق وسماتهم وحركاتهم وعاداتهم ، بعين العابد السائح الذي يجول في متحف من إبداع أحسن الخالقين . فكيف بمن يقضي عمره كله في هذا المتاع الرفيع ؟

إن القرآن بمثل هذه اللمسة يخلق الإنسان خلقا جديدا ، بحس جديد ؛ ويمتعه بحياة جديدة، ويهبه متاعا لا نظير له في كل ما يتصوره في الأرض من متاع .

وعلى هذا النحو الرفيع من التأمل والإدراك يريد القرآن الناس . والإيمان هو الذي يمنح القلب البشري هذا الزاد ، وهو الذي يهيء له هذا المتاع العلوي . وهو بعد في الأرض في عالم الطين !

وبعد فقد كانت اللفتة الأولى إلى معرض الأرض ؛ وكانت اللفتة الثانية إلى معرض النفس . ثم تلتها في السورة لفتة إلى معرض الغيب العلوي المطوي، حيث الرزق المقسوم والحظ المرسوم :

« وفي السماء رزقكم وما توعدون » ..

وهي لفتة عجيبة. فمع أن أسباب الرزق الظاهرة قائمة في الأرض ، حيث يكد فيها الإنسان ويجهد ، وينتظر من ورائها الرزق والنصيب . فإن القرآن يرد بصر الإنسان ونفسه إلى السماء . إلى الغيب . إلى الله . ليتطلع هناك إلى الرزق المقسوم والحظ المرسوم . أما الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة ، فهي آيات للموقنين . آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله ؛ ويتخلص من أثقال الأرض وأوهاق الحرص ، والأسباب الظاهرة للرزق ، فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع إلى المصدر الأول الذي أنشأ هذه الأسباب .

والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها ؛ ويفهمها على وضعها ؛ ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها . فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها . إنما المقصود هو ألا يعلق نفسه بها، وألا يغفل عن الله في عمارتها. ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء . وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه، فرزقه مقدر في السماء، وما وعده الله لا بد أن يكون.

بذلك ينطلق قلبه من إسار الأسباب الظاهرة في الأرض ؛ بل يرف بأجنحة من هذه الأسباب إلى ملكوت السماوات . حين يرى في الأسباب آيات تدله على خالق الأسباب. ويعيش موصولا قلبه بالسماء ، وقدماه ثابتتان على الأرض . فهكذا يريد الله لهذا الإنسان . هكذا يريد الله لذلك المخلوق الذي جبله من الطين ونفخ فيه من روحه فإذا هو مفضل على كثير من العالمين .

والإيمان هو الوسيلة لتحقيق ذلك الوضع الذي يكون فيه الإنسان في أفضل حالاته . لأنه

يكون حينئذ فى الحالة التى أنشأه الله لها . فطرة الله التى فطر الناس عليها . قبل أن يتناولها الفساد والانحراف ..

وبعد هذه اللمسات الثلاث فى الأرض والنفس والسماء . يقسم الله سبحانه بذاته العلية على صدق هذا الحديث كله :

« فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » ..

وكونهم ينطقون ، حقيقة بين أيديهم ، لايجادلون فيها ولايمارون ، ولايرتابون فيها ولا يخرصون . وكذلك هذا الحديث كله . والله أصدق القائلين .

وقد روى الأصمعى نادرة ذكرها الزمخشرى فى الكشاف ، ونسوقها نحن لطرافتها — فى تحفظ من جانب الرواية ! — قال :

« أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابى على قعود له . فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمان . فقال : اتل علىّ . فتلوت : « والذاريات » .. فلما بلغت قوله تعالى : « وفى السماء رزقكم وماتوعدون » قال: حسبك ! فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ؛ وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى ! فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ؛ فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت دقيق. فالتفت ، فإذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفر . فسلم على واستقرأ السورة . فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا؟ فقرأت : « فورب السماء والأرض إنه لحق» .. فصاح قال : ياسبحان الله . من الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ! قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه » ..

وهى نادرة تصح أولا تصح . ولكنها تذكرنا بجلال هذا القسم من الله سبحانه . القسم بذاته . بصفته : رب السماء والأرض . ممايزيد الحقيقة المقسم عليها جلالا . وهى حقيقة بلا قسم ولا يمين .

* * *

ذلك كان القطاع الأول فى السورة . أما القطاع الثانى فيشمل تلك الإشارات إلى قصص إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم نوح .. وهو مرتبط بما قبله ، ومرتبط كذلك بما بعده فى سياق السورة .

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه ، فقالوا : سلاما . قال : سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين .فقربه إليهم قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة . قالوا: لا تخف ، وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها ، وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » ..

إنها آية أو آيات فى تاريخ الرسالات . كتلك الآيات التى أشار إليها فى الأرض وفى الأنفس . وإنه وعد أو وعود تتحقق من تلك الوعود التى أشار إلى تحققها فى القطاع السابق .

ويبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال: « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ » .. تنويها بهذا الحديث ، وتهيئة للأذهان . مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين ؛ إما لأنهم كذلك عند الله ؛ وإما إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد فى القصة .

ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال واضحا . فما يكاد ضيفه يدخلون عليه ويقولون: سلاما . ويرد عليهم السلام ، وهو ينكرهم ولا يعرفهم . ما يكاد يتلقى السلام ويرده حتى يذهب إلى أهله — أى زوجه — مسارعا ليهيىء لهم الطعام . ويجىء به طعاما وفيرا يكفى عشرات : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » .. وهم كانوا ثلاثة فيما يقال .. تكفيهم كتف من هذا العجل السمين !

« فقربه إليهم . قال : ألا تأكلون ؟ » .. وجاء هذا السؤال بعد أن رأى أيديهم لا تصل إليه ، ولا يبدو عليهم أنهم سيأكلون طعامه .

« فأوجس منهم خيفة » .. إما لأن الطارىء الذى لا يأكل طعام مضيفه ينبىء عن نية شر وخيانة. وإما لأنه لمح أن فيهم شيئا غريبا! عندئذ كشفوا له عن حقيقتهم، أو طمأنوه وبشروه: « قالوا : لا تخف . وبشروه بغلام عليم » . . وهى البشارة بإسحاق من زوجه العقيم .

« فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها . وقالت : عجوز عقيم » .. وقد سمعت البشرى، فبغتت وفوجئت ، فندت منها صيحة الدهش ، وعلى عادة النساء ضربت خديها بكفيها . وقالت : عجوز عقيم . تنبىء عن دهشتها لهذه البشرى وهى عجوز . وقد كانت من الأصل عقيما . وقد

أخذتها المفاجأة العنيفة التى لم تكن تتوقعها أبدا ، فنسيت أن البشرى تحملها الملائكة اعندئذ ردها المرسلون إلى الحقيقة الأولى . حقيقة القدرة التى لا يقيدها شىء ، والتى تدبر كل أمر بحكمة وعلم :

« قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم » . .

وكل شىء يكون إذا قيل له : كن . وقد قال الله . فماذا بعد قوله ؟ إن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشرى ، وتحدان من تصوراته . فيدهش إذ يرى مايخالف المألوف له؛ ويعجب كيف يكون ؛ وقد يتبجح فينكر أن يكون ! والمشيئة المطلقة ماضية فى طريقها لاتتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود ؛ تبدع ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود !

عند ذلك راح إبراهيم يسأل وقد عرف حقيقة ضيفه عن شأنهم الذى أرسلوا فيه : « قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ » . . « قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » .. هم قوم لوط . كما ورد فى سور أخرى. « لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين » ..

وهذه الحجارة الطينية المعلمة أو المعدة المجهزة عند الله للمسرفين المتجاوزين الحق ــ وقوم لوط كانوا مسرفين فى تجاوزهم للفطرة والحق والدين ــ لايمتنع أن تكون حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطينى من جوف الأرض . فهى « عند ربك » بهذا الاعتبار مسلطة ــ وفق إرادته ونواميسه ــ على من يريد من المسرفين . مقدرة بزمانها ومكانها وفق علمه وتدبيره القديم . وأن يتولى إرسالها ــ فى إطار إرادته ونواميسه ــ ملائكته. وهل ندرى نحن حقيقة ملائكته ؟ وهل ندرى حقيقة علاقتهم بهذا الكون ومن فيه ومافيه ؟ وهل ندرى حقيقة القوى الكونية التى نسميها من عندنا أسماء بحسب ظواهرها التى تتكشف لنا بين الحين والحين ؟ ومالنا نعترض على خبر الله لنا أنه سلط بعض هذه القوى فى وقت ما ، لترسل بعض هذه القوى فى صورة ما ، على قوم ما، فى أرض ما، مالنا نعترض على خبر الله لنا، ونحن ما نزال كل ذخيرتنا من المعرفة فروض ونظريات وتأويلات لظواهر تلك القوى . أماحقيقتها فهى عنا بعيد ؟ ! فلتكن حجارة بركانية أو لتكن حجارة أخرى فهذه كتلك فى يد الله ، ومن صنعه ، وسرها غيب عنده يكشفه حين يشاء !

« فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين » .. لإنجائهم وحمايتهم .. « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » : هم بيت النبى لوط . كما ورد فى مواضع أخرى . فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من المهلكين .

« وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » .. فالذين يخافون هم الذين يرون الآية ويدركونها وينتفعون بها . أما الآخرون فطموسون لايرون آيات الله . لافى الأرض ولا فى أنفسهم ولافى أحداث التاريخ !

***

وآية أخرى فى قصة موسى ، يشير إليها إشارة سريعة فى معرض الآيات فى تاريخ المرسلين:

« وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال :ساحرأومجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، وهو مليم » . .

والسلطان المبين الذى أرسل الله به موسىإلى فرعون ، هو الحجة القوية،والبرهان القاطع، وهو الهيبة الجليلة التى خلعها عليه . وهو معها يسمع ويرى . ولـكن فرعون تولى بركنه ، وازور بجانبه عن الحق الواضح والبرهان القاطع ؛ وقال عن موسى النبى الذى كشف له عن آيات الله الخوارق : « ساحرأومجنون » . .مما يقطع بأن الآيات والخوارق لاتهدى قلبا لميتأهب للهدى ؛ ولاتقطع لسانا يصر على الباطل ويفترى .

ولا يطيل السياق هنا فى عرض تفصيلات القصة ؛ فيمضى إلى نهايتها التى تتجلى فيها الآية الباقية المذكورة فى التاريخ : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم » .. أى مستحقا للوم على ما كان منه من طغيان ومن تـكذيب .

وواضح فى التعبير فعل الله المباشر فى أخذه هو وقومه ، وفى نبذهم فى اليم . وهو الإيقاع المقصودلإبراز آيةاللهفى موسى. فىمعرض آياتهفىالأرضوالأنفس وتاريخ الرسالاتوالمرسلين .

***

وآية أخرى فى عاد :

« وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم» . .

وسميت الريح التى أرسلت على عاد عقيما لأنها لم تـكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا . إنما تحمل الموت والدمار . وتترك كل شىء تأتى عليه كالميت الذى رمّ وتحول إلى فتات !

والريح قوة من قوى هذا الـكون . وجند من جند الله . وما يعلم جنود ربك إلا هو . يرسلها ــ فىإطارمشيئته وناموسه ــفى صورة ما من صورها ، فى الوقت المقدر ، علىمن يريد ، بالهلاك والدمار ، أو بالحيا والحياة . ولا مكان فى مثل هذه المواضع للاعتراض السطحىالساذج،

بالقول بأن الريح تجرى وفق نظام كونى ؛ وتهب هنا أو هناك تبعا لعوامل طبيعية . فالذى يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه العوامل هو الذى يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تقديره وتدبيره . وهو قادر على أن يسلطها كما يريد فى إطار النظام الذى قدره والعوامل التى جعلها . ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض !

* * *

وآية ثالثة فى ثمود :

« وفى ثمود إذ قيل لهم : تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » . .

والإشارة فى قوله : « إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين » .. قد تعنى إمهالهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة . وهو ماورد فى الآية : « قيل : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام » . . وقد تعنى ماقدر لهم من المتاع منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، فحق عليهم الهلاك .

ومايقال فى الحجارة التى أرسلت على قوم لوط ، وفى الريح التى أرسلت على عاد ، يقال فى الصاعقة التى أرسلت على ثمود . فكلها قوى كونية مدبرة بأمرالله ، مسخرة بمشيئته وبنواميسه. يسلطها على من يشاء فى إطار تلك النواميس . فتؤدى دورها الذى يكلفها الله . كأى جند من جند الله .

* * *

وآية رابعة فى قوم نوح :

« وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين » ..

وهى إشارة سريعة تلمس القصة لمسة واحدة بدون إيضاح. كأنما ليقال : واذكرقوم نوح. وقد وردت « قومَ » منصوبة وبدون لفظ « فى » بتقدير كلمة « اذكر » قبلها . وتلتها « والسماء بنيناها .. » معطوفة عليها .. وهذه آية كونية ، وتلك آية تاريخية . يربطها السياق معا ، ويربط بها هذا القطاع بالقطاع الثالث فى السورة ..

* * *

« والسماء بنيناها بأيد ، وإنا لموسعون، والأرض فرشناها فنعم الماهدون، ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله ، إنى لكم منه نذير مبين.. ولاتجعلوا مع الله إلها آخر ، إنى لكم منه نذير مبين »..

إنها عودة إلى المعرض الكونى الذى افتتحت به السورة ، فى صورة من صوره الكثيرة التى يجلوها القرآن للقلوب . واستطراد فى الإشارة إلى آيات الله هنا وهناك ، يصل آية نوح بآية السماء وآية الأرض وآية الخلائق . ثم يخلص به إلى ذلك الهتاف بالبشر ليفروا إلى الله موحدين متجردين .

« والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » . .

والأيد : القوة . والقوة أوضح ما ينبىء عنه بناء السماء الهائل المتماسك المتناسق . بأى مدلول من مدلولات كلمة السماء . سواء كانت تعنى مدارات النجوم والكواكب . أم تعنى مجموعة من المجموعات النجمية التى يطلق عليها اسم المجرة وتحوى مئات الملايين من النجوم . أم تعنى طبقة من طبقات هذا الفضاء الذى تتناثر فيه النجوم والكواكب . . أم غير هذا من مدلولات كلمة السماء .

والسعة كذلك ظاهرة فهذه النجوم ذات الأحجام الهائلة والتى تعد بالملايين ، لا تعدو أن تكون ذرات متناثرة فى هذا الفضاء الرحيب .

ولعل فى الإشارة إلى السعة إيحاء آخر إلى مخازن الأرزاق التى قال من قبل : إنها فى السماء . ولو أن السماء هناك مجرد رمز إلى ما عند الله . ولكن التعبير القرآنى يلقى ظلالا معينة ، يبدو أنها مقصودة فى التعبير ، لخطاب المشاعر البشرية خطابا موحيا .

ومثلها الإشارة الأخرى إلى الأرض المهودة المفروشة :

« والأرض فرشناها . فنعم الماهدون » . .

فقد أعد الله هذه الأرض لتكون مهدا للحياة كما أسلفنا . والفرش يوحى باليسر والراحة والعناية . وقد هيئت الأرض لتكون محضنا ميسرا ممهدا ، كل شىء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها : « فنعم الماهدون » . .

« ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . .

وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض ـ وربما فى هذا الكون ـ إذ أن التعبير لا يخصص الأرض ـ قاعدة الزوجية فى الخلق . وهى ظاهرة فى الأحياء . ولكن كلمة « شىء » تشمل غير الأحياء أيضا . والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية .

وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا . وأن فكرة عموم الزوجية ـ حتى فى الأحياء ـ لم تكن معروفة حينذاك . فضلا على عموم الزوجية فى كل شىء . . حين نتذكر

هــذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم . . وهو يطلعنا على الحقائق الـكونية فى هذه الصورة العجيبة المـبكرة كل التبـكير !

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة فى طريق الوصول إلى الحقيقة. وهى تكاد تقرر أن بناء الـكون كله يرجع إلى الذرة. وأن الذرة مؤلفة من زوج من الـكهرباء: موجب وسالب! فقد تـكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة فى ضوء هذا النص العجيب..

وفى ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة الهائلة المدى : فى أجواز السماء ، وفى آماد الأرض ، وفى أعماق الخلائق . يهتف بالبشر ليفروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق ، متجردين من كل مايثقل أرواحهم ويقيدها ؛ موحدين الله الذى خلق هذا الـكون وحده بلاشريك .

« ففروا إلى الله ، إنى لـكم منه نذير مبين . ولاتجعلوا مع الله إلها آخر ، إنى لـكم منه نذير مبين » . .

والتعبير بلفظ الفرار عجيب حقا . وهو يوحي بالأثقال والقيود والأغلال والأوهاق، التى تشد النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسرها وتدعها فى عقال . وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثم يجىء الهتاف قويا للانطلاق والتملص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود ! الفرار إلى الله وحده منزها عن كل شريك . وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط العذر : إنى لـكم منه نذير مبين » .. وتـكرار هذا التنبيه فى آيتين متجاورتين ، زيادة فى التنبيه والتحذير !

* * *

وكأنما كانت هذه الإشارة إلى آية السماء وآية الأرض وآية الخليقة استطرادا مع آيات الرسالات والرسل . فلما انتهت جاء التعقيب على قصص الرسل التى سلفت فى السياق :

« كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلاقالوا : ساحر أومجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون . فتول عنهم فما أنت بملوم . وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » . .

فهى جبلة واحدة وطبيعة واحدة للمـكذبين؛ وهو استقبال واحد للحق وللرسل يستقبلهم به المنحرفون : « كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلاقالوا : ساحر أومجنون » .. كما يقول هؤلاء المشركون ! كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون ! وما تواصوا بشىء إنما هى طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين !

والنتيجة الطبيعية التى تترتب على هذا الموقف المكرور ، الذى كأنما تواصى به الطاغون على مدار القرون ، ألا يحفل الرسول — صلى الله عليه وسلم — تكذيب المشركين . فهو غير ملوم على ضلالهم ، ولامقصر فى هدايتهم : « فتول عنهم فما أنت بملوم » . . إنما هو مذكر ، فعليه أن يذكر ، وأن يمضى فى التذكير ،مهما أعرض المعرضون وكذب المكذبون : «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » . . ولاتنفع غيرهم من الجاحدين . والتذكير هو وظيفة الرسل . والهدى والضلال خارجان عن هذه الوظيفة ، والأمر فيها إلى الله وحده . الذى خلق الناس لأمر يريده . .

* * *

هنايجىء الإيقاع الأخير فى السورة . ويتضح معنى الفرار إلى الله ، والتخلص من الأوهاق والأثقال ، لأداء الوظيفة التى خلق الله العباد لها ، ومنحهم وجودهم ليؤدوها :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . .

وإن هذا النص الصغير ليحتوىحقيقة ضخمةهائلة ،من أضخمالحقائق الكونيةالتىلاتستقيم حياة البشر فى الأرض بدون إدراكها واستيقانها . سواء كانت حياة فرد أم جماعة . أم حياة الإنسانية كلها فى جميع أدوارها وأعصارها .

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعانى والمرامى ، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة ، التى تعد حجر الأساس الذى تقوم عليه الحياة .

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس . تتمثل فى وظيفةٍ من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده ؛ وأصبح بلا وظيفة ، وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الأصيل، الذى تستمد منه قيمتها الأولى . وقد انفلت من الناموس الذى خرج به إلى الوجود ، وانتهى إلى الضياع المطلق ، الذى يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود ، الذى يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء .

هذه الوظيفة المعينة التى تربط الجن والإنس بناموس الوجود . هى العبادة لله . أو هى العبودية لله . . أن يكون هناك عبد ورب . عبد يَعبد ، ورب يُعبد . وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار ،

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة ، ويتبين أن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر . فالجن والإنس لايقضون حياتهم فى إقامة الشعائر ؛ والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التى يكلفها الجن ؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان . نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة » . . فهى الخلافة فى الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنسانى . وهى تقتضى ألوانا من النشاط الحيوى فى عمارة الأرض ، والتعرف إلى قواها وطاقاتها ، وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقق إرادة الله فى استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها . كما تقتضى الخلافة القيام على شريعة الله فى الأرض لتحقيق المنهج الإلهى الذى يتناسق مع الناموس الكونى العام .

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التى هى غاية الوجود الإنسانى أو التى هى وظيفة الإنسان الأولى ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ؛ وأن وظيفة الخلافة داخلة فى مدلول العبادة قطعا . وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن فى أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله فى النفس . أى استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربا . عبدا يَعبد ، وربا يُعبد . وأن ليس وراء ذلك شىء ؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار . ليس فى هذا الوجود إلاعابد ومعبود ؛ وإلارب واحد والكل له عبيد .

والثانى : هو التوجه إلى الله بكل حركة فى الضمير ، وكل حركة فى الجوارح ، وكل حركة فى الحياة . التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد فى سبيل الله ، والجهاد فى سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله . . كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التى خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذى يتمثل فى عبودية كل شىء لله دون سواه .

عندئذ يعيش الإنسان فى هذه الأرض شاعرا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى ، جاء لينهض بها فترة ، طاعة لله وعبادة له لاأرب له هو فيها ، ولاغاية له من ورائها ، إلا الطاعة ، وجزاؤها الذى يجده فى نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله ، ومن أنس برضى الله عنه ، ورعايته له . ثم يجده فى الآخرة تكريما ونعيما وفضلا عظيما .

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقا . يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة . ويكون قد تحرر بهذا الفرار . تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال. وخلص لله ، واستقر فى الوضع الكونى الأصيل : عبداً لله . خلقه الله لعبادته . وقام بما خلق له . وحقق غاية وجوده . فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة فى الأرض ، وينهض بتكاليفها ، ويحقق أقصى ثمراتها ؛ وهو فى الوقت ذاته نافض يديه منها ؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها . ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها . ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها ، ثم الفرار إلى الله منها !

ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال فى النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها. فلتكن النتائج ما تكون . فالإنسان غير معلق بهذه النتائج . إنما هو معلق بأداء العبادة فى القيام بهذه الأعمال ؛ ولأن جزاءه ليس فى نتائجها ، إنما جزاؤه فى العبادة التى أداها . .

ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيرا كاملا تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال . فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامن فيها . ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته . ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك . فهذه النتائج ليست داخلة فى واجبه ولا فى حسابه ، وليست من شأنه . إنما هو قدر الله ومشيئته . وهو وجهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيئته .

ومتى نفض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد ؛ وشعر أنه أخذ نصيبه ، وضمن جزاءه ، بمجرد تحقق معنى العبادة فى الباعث على العمل والجهد ، فلن تبقى فى قلبه حينئذ بقية من الأطماع التى تدعو إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة . فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة فى الخلافة والنهوض بالتكاليف . ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض ، وثمرات هذا النشاط . فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته .

والقرآن يغذى هـذا الإحساس ويقويه ، بإطلاق مشاعر الإنسان من الانشغال بهم الرزق ومن شح النفس . فالرزق فى ذاته مكفول . تكفل به الله تعالى لعباده . وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه — سبحانه — أو يرزقوه . حين يكلفهم إنفاق هذا المال لمحتاجيه ، والقيام بحق المحرومين فيه :

«ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» . .

وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد فى الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق. بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة ، الذى يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة. ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقا بتحقيق معنى العبادة فى الجهد ، طليقا من التعلق بنتائج الجهد . . وهى مشاعر كريمة لا تنشأ إلا فى ظل هذا التصور الكريم .

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقها ، فذلك لأنها لم تعش — كما عاش جيل المسلمين الأول — فى ظلال هذا القرآن . ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم .

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق . أفق العبادة . أو أفق العبودية . ويستقر عليه ، فإن نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة . ولو كانت هذه الغاية هى نصر دعوة الله وجعل كلمته هى العليا . فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم . ومن جهة أخرى فهو لا يعنى نفسه ببلوغ الغايات ، إنما يعنى نفسه بأداء الواجبات ، تحقيقا لمعنى العبادة فى الأداء . أما الغايات فموكولة لله ، يأتى بها وفق قدره الذى يريده . ولا داعى لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله ، وليست داخلة فى حساب المؤمن العابد لله.

ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، وصلاح البال ، فى جميع الأحوال . سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها . تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها . فهو قد أنهى عمله ، وضمن جزاءه ، عند تحقق معنى العبادة . واستراح . وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته .. وقد علم هو أنه عبد ، فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد . وعلم أن الله رب ، فلم يعد يتقحم فيما هو من شؤون الرب . واستقرت مشاعره عند هذا الحد ، ورضى الله عنه ، ورضى هو عن الله .

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة ، التى تقررها آية واحدة قصيرة : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .. وهى حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلها عند ما تستقر حقا فى الضمير ...

***

وفى ضوء هذه الحقيقة الكبيرة ينذر الذين ظلموا فلم يؤمنوا ؟ واستعجلوا وعد الله ، وكذبوا . وتختم السورة بهذ الإنذار الأخير :

« فإن للذين ظلموا ذنوبا [1] مثل ذنوب أصحابهم . فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون » ..

(١) الذنوب : الدلو . وهو كناية عن أن لهم مثل ما أصاب من قبلهم من الظالمين ..

سورة الطور مكية وآياتها ٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَا ؟ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ؟ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْلَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا : إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ .

« فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ : شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ؟ * قُلْ : تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا ؟ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ؟ * أَمْ يَقُولُونَ : تَقَوَّلَهُ ؟ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ؟ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ؟ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ؟ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ؟ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ؟ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ! * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا : سَحَابٌ مَرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » ..

هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير فى القلب البشرى . ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التى تساوره وتتدسس إليه وتختبىء هنا وهناك فى حناياه . ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان . . حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها ، وهى تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام !

وهى حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة ، والمعنى والمدلول ، والصور والظلال ، والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء . ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف ، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق ، وصورها وظلالها كما لو كانت سياطا لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام !

وتبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقدسات فى الأرض والسماء . بعضها مكشوف معلوم! وبعضها مغيب مجهول : « والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع » . .

القسم على أمر عظيم رهيب ، يرج القلب رجا ، ويرعب الحس رعبا . فى تعبير يناسب لفظه مدلوله الرهيب ؛ وفى مشهد كذلك ترجف له القلوب : « إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ، يوم تمور السماء مورا، وتسير الجبال سيرا » . .

وفى وسط المشهدالمفزع نرى ونسمع مايزلزلويرعب ،من ويل وهول،وتقريع و تفزيع: « فويل يومئذللمكذبين ، الذين هم فى خوض يلعبون.يوم يدعون إلى نار جهنم دعا. هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا ؟ أم أنتم لاتبصرون ؟ اصلوها فاصبروا أولاتصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » . .

هذا شوط من حملة المطاردة . يليه شوط آخر من لون آخر . شوط فى إطماع القلوب التى رأت ذلك الهول المرعب — إطماعها فى الأمن والنعيم . بعرض صورة المتقين وماأعدلهم من تكريم . وماهيىء لهم من نعيم رخى رغيد ، يطول عرضه ، وتكثر تفصيلاته،وتتعدد ألوانه. ممايستجيش الحس إلى روْح النعيم وبرده ؛ بعد كرب العذاب وهوله : « إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهمووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهمبإيمان ألحقنابهم ذريتهم ، وماألتناهم من عملهم من شيء ، كل امرىء بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم ممايشتهون. يتنازعون فيها كأسا لالغوفيها ولاتأثيم .ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهملؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم » . .

والآن وقد أحس القلب البشرى سياط العذاب فى الشوط الأول ؛ وتذوق حلاوة النعيمفى الشوط الثانى . . الآن يجىء الشوط الثالث يطارد الهواجس والوساوس ؛ ويلاحق الشبهات والأضاليل ؛ ويدحض الحجج والمعاذير . ويعرض الحقيقة بارزة واضحة بسيطة عنيفة . تتحدث بمنطق نافذ لايحتمل التأويل ، مستقيم لايحتمل اللفوالدوران . يلوى الأعناق ليا ويلجئها إلى الإذعان والتسليم . . ويبدأ هذا الشوط بتوجيه الخطاب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

ليمضى فى تذكيره لهم ، على الرغم من سوء أدبهم معه ؟ وليقرعهم بهذا المنطق النافذ القوى المستقيم : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولامجنون . أم يقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ؟ قل : تربصوا فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون تقوّله ؟ بل لايؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين. أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون؟ أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون » ..

وعقب هذه الأسئلة المتلاحقة . بل هذه القذائف الصاعقة . التى تنسف الباطل نسفا ، وتحرج المكابر والمعاند ، وتخرس كل لسان يزيغ عن الحق أو يجادل فيه . . عقب هذا يصور تعنتهم وعنادهم فى صورة الذى يكابر فى المحسوس : « وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب مركوم » . والفرق بين قطعة السماء تسقط وبين السحاب واضح ، ولكنهم هم يتلمسون كل شبهة ليعدلوا عن الحق الواضح .

هنا يلقى عليهم بالقذيفة الأخيرة . قذيفة التهديد الرعيب ، بملاقاة ذلك المشهد المرهوب ، الذى عرض عليهم فى مطلع السورة : « فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون . يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولاهم ينصرون » .. كما يهددهم بعذاب أقرب من ذلك العذاب : « وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ، ولكن أكثرهم لايعلمون » ..

ثم تختم السورة بإيقاع رضى رخى .. إنه موجه إلى الرسول الكريم الذى يقولون عنه : « شاعر نتربص به ريب المنون » . . ويقولون : كاهن أو مجنون . موجه إليه من ربه يسليه ويعزيه فى إعزاز وتكريم . فى تعبير لانظير له فى القرآن كله ؛ ولم يوجه من قبل إلى نبى أو رسول : « واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » ..

إنه الإيقاع الذى يمسح على العنت والمشقة اللذين يلقاهما الرسول الكريم ، من أولئك المتعنتين المعاندين ، الذين اقتضت مواجهتهم تلك الحملة العنيفة من المطاردة والهجوم . .

* * *

« والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع . يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا ؟ أم أنتم لاتبصرون ؟ اصلوها فاصبروا أولاتصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

هذه الآيات القصيرة ، والفواصل المنغمة ، والإيقاعات الفاصلة ، تصاحب السورة من مطلعها . وهى تبدأ كلمة واحدة . ثم تصبح كلمتين . ثم تطول شيئا فشيئا حتى تبلغ فى نهاية المقطع اثنتى عشرة كلمة .مع المحافظة الكاملة على قوة الإيقاع .

والطور : الجبل فيه شجر . والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف فى القرآن ، المذكور فى قصة موسى — عليه السلام — والذى نزلت فوقه الألواح . فالجو جو مقدسات يقسم بها الله سبحانه على الأمر العظيم الذى سيجىء .

والكتاب المسطور فى رق منشور . الأقرب أن يكون هو كتاب موسى الذى كتب له فى الألواح . للمناسبة بينه وبين الطور . وقيل . هو اللوح المحفوظ . تمشيا مع مابعده : البيت المعمور ، والسقف المرفوع . ولايمتنع أن يكون هذا هو المقصود .

والبيت المعمور : قد يكون هو الكعبة . ولكن الأرجح أن يكون بيت عبادة الملائكة فى السماء لما ورد فى الصحيحين فى حديث الإسراء : « ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لايعودون إليه آخر ماعليهم » .. يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم !

والسقف المرفوع : السماء . قاله سفيان الثورى وشعبة وأبو الأحوص عن سماك ابن خالد ابن عرعرة عن على — كرم الله وجهه — قال سفيان : ثم تلا : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » ..

والبحر المسجور : المملوء . وهو أنسب شىء يذكر مع السماء فى مشهد . فى انفساحه وامتلائه وامتداده . وهو آية فيها رهبة ولها روعة . تؤهلانه للذكر مع هذه المشاهد المقسم بها على الأمر العظيم . وقد يكون معنى المسجور : المتقد . كما قال فى سورة أخرى: « وإذا البحار سجرت » أى توقدت نيرانا . كما أنه قد يشير إلى خلق آخر كالبيت المرفوع يعلمه الله .

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق العظيمة على أمر عظيم . بعد أن يتهيأ الحس بهذه الإيقاعات لاستقبال ذلك الأمر العظيم :

« إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » ..

فهو واقع حتما ، لايملك دفعه أحد أبدا . وإيقاع الآيتين والفاصلتين حاسم قاطع . يلقى فى الحس أنه أمر داهم قاصم ، ليس منه واق ولاعاصم . وحين يصل هذا الإيقاع إلى الحس البشرى بلاعائق فإنه يهزه ويضعضعه ويفعل به الأفاعيل .. قال الحافظ أبو بكر ابن أبى الدنيا : حدثنا أبى ، حدثنا موسى ابن داود ، عن صالح المرى ، عن جعفر ابن زيد العبدى.قال : خرج عمر يعس بالمدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلى ، فوقف يستمع قراءته فقرأ : « والطور ... حتى بلغ : إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » .. قال : قسم ورب الكعبة حق . فنزل عن حماره . واستند إلى حائط ، فمكث مليا ، ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهرا يعوده الناس لايدرون مامرضه . رضى الله عنه .

وعمر — رضى الله عنه — سمع السورة قبل ذلك ، وقرأها ، وصلى بها ، فقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يصلى بها المغرب . وعمر يعلم . ويتأسى . ولكنها فى تلك الليلة صادفت منه قلبا مكشوفا ، وحسا مفتوحا ، فنفذت إليه وفعلت به هذاالذى فعلت . حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها اللدنية المباشرة ؛ التى تصل إلى القلوب فى لحظات خاصة ، فتتخللها وتتعمقها ، فى لمسة مباشرة كهذه اللمسة ، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأطاقها لأنه تهيأ لتلقيها . فأما غيره فيقع لهم شىء مما وقع لعمر — رضى الله عنه — حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى ..

ويعقب هذا الإيقاع الرهيب مشهد مصاحب له رهيب :

« يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا » ..

ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهى تضطرب وتتقلب كما يضطرب الموج فى البحر من هنا إلى هناك بلاقوام . ومشهد الجبال الصلبة الراسية تسير خفيفة رقيقة لاثبات لها ولااستقرار .أمر مذهل مزلزل . يدل ضمنا على الهول الذى تمور فيه السماء وتسير منه الجبال. فكيف بالمخلوق الإنسانى الصغير الضعيف فى ذلك الهول المذهل المخيف ؟ !

وفى زحمة هذا الهول الذى لايثبت عليه شىء ؛ وفى ظل هذا الرعب المزلزل لكل شىء،

يعاجل المكذبين بما هو أهول وأرعب . يعاجلهم بالدعاء عليهم بالويل من العزيز الجبار :
« فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم فى خوض يلعبون » . .

والدعاء بالويل من الله حكم بالويل وقضاء . فهو أمر لامحالة واقع ، ماله من دافع . وهو كائن حتما ، يوم تمور السماء مورا و تسير الجبال سيرا . فيتناسب هذا الهول مع ذلك الويل ، وينصب كله على المكذبين . . « الذين هم فى خوض يلعبون » . .

وهذا الوصف ينطبق ابتداء على أولئك المشركين ومعتقداتهم المتهافتة ،وتصوراتهم الهلهلة؛ وحياتهم القائمة على تلك المعتقدات وهذه التصورات ، التى وصفها القرآن وحكاها فى مواضع كثيرة . وهى لعب لاجد فيه . لعب يخوضون فيه كما يخوض اللاعب فى الماء ، غير قاصد إلى شاطىء أو هدف ، سوى الخوض واللعب !

ولكنه يصدق كذلك على كل من يعيش بتصور آخر غير التصور الإسلامى . . وهذه حقيقة لايدركها الإنسان إلا حين يستعرض كل تصورات البشر المشهورة ــ سواء فى معتقداتهم أو أساطيرهم أو فلسفاتهم ــ فى ظل التصور الإسلامى للوجود الإنسانى ثم للوجود كله . . إن سائر التصورات ــ حتى لكبار الفلاسفة الذين يعتز بهم تاريخ الفكر الإنسانى ــ تبدو محاولات أطفال يخبطون ويخوضون فى سبيل الوصول إلى الحقيقة . تلك الحقيقة التى تعرض فى التصور الإسلامى ــ وبخاصة فى القرآن ــ عرضا هادئا ناصعا قويا بسيطا عميقا . يلتقى مع الفطرة التقاء مباشرا دون كد ولا جهد ولا تعقيد . لأنه يطالعها بالحقيقة الأصيلة العميقة فيها . ويفسر لها الوجودوعلاقتها به ، كما يفسر لها علاقة الوجود بخالقه تفسيرا يضاهى ماستقر فيها ويوافقه .

وطالما عجبت وأنا أطالع تصورات كبار الفلاسفة ؛ وألا حظ العناء القاتل الذى يزاولونه ، وهم يحاولون تفسير هذا الوجود وارتباطاته ؛ كما يحاول الطفل الصغير حل معادلة رياضية هائلة . . وأمامى التصور القرآنى واضحا ناصعا سهلا هينا ميسرا طبيعيا ، لا عوج فيه ولالف ولاتعقيد ولا التواء . وهذا طبيعى ، فالتفسير القرآنى للوجود هو تفسير صانع هذا الوجود لطبيعته وارتباطاته . . أما تصورات الفلاسفة فهى محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله . والعاقبة معروفة لمثل هذه المحاولات البائسة !

إنه عبث . وخلط . وخوض . . حين يقاس إلى الصورة المكتملة الناضجة ، المطابقة ، التى يعرضها القرآن على الناس ، فيدعها بعضهم إلى تلك المحاولات المتخبطة الناقصة . المستحيلة الا كتمال والنضوج !

وإن الأمور لتظل مضطربة فى حس الإنسان وتصوره ، متأثرة بالتصورات المنحرفة ، وبالمحاولات البشرية الناقصة . . ثم يسمع آيات من القرآن فى الموضوع الذى يساوره . فإذا النور الهادىء . والميزان الثابت . وإذا هو يجد كل شىء فى موضعه ، وكل أمر فى مكانه ،وكل حقيقة هادئة مستقرة لا تضطرب ولا تمور . ويحس بعدها أن نفسه استراحت ، وأن باله هدأ، وأن عقله اطمأن إلى الحق الواضح ، وقد زال الغبش والقلق واستقرت الأمور .

كذلك يبدو أن الناس فى خوض يلعبون من ناحية اهتماماتهم فى الحياة. حين تقاس بالاهتمامات التى يثيرها الإسلام فى النفس ، ويعلق بها القلب ، ويشغله بتدبرها وتحقيقها . وتبدو تفاهة تلك الاهتمامات وضآلتها ، والمسلم ينظر إلى اشتغال أهلها بها ، وانغماسهم فيها ، وتعظيمهم لها ، وحديثهم عنها كأنها أمور كونية عظمى ! وهو ينظر إليهم كما ينظر إلى الأطفال المشغولين بعرائس الحلوى وبالدمى الميتة ، يحسبونها شخوصا ؛ ويقضون أوقاتهم فى مناغاتها واللعب معها وبها ! ! !

إن الإسلام يرفع من اهتمامات البشر بقدر مايرفع من تصورهم للوجود الإنسانى وللوجود كله ؛ وبقدر مايكشف لهم عن علة وجودهم وحقيقته ومصيره ؛ وبقدر مايجيب إجابة صادقة واضحة عن الأسئلة التى تساور كل نفس : من أين جئت ؟ لماذا جئت ؟ إلى أين أذهب ؟

وإجابة الإسلام عن هذه الأسئلة تحدد التصور الحق للوجود الإنسانى وللوجود كله. فإن الإنسان ليس بدعا من الخلائق كلها . فهو واحد منها . جاء من حيث جاءت . وشاركها علة وجودها. ويذهب إلى حيث تقتضى حكمة خالق الوجود كله أن يذهب . فالإجابة على تلك الأسئلة تشمل كذلك تفسيرا كاملا للوجود كله ، وارتباطاته وارتباطات الإنسان به . وارتباط الجميع بخالق الجميع .

وهذا التفسير ينعكس على الاهتمامات الإنسانية فى الحياة ؛ ويرفعها إلى مستواه . ومن ثم تبدو اهتمامات الآخرين صغيرة هزيلة فى حس المسلم المشغول بتحقيق وظيفة وجوده الكبرى فى هذا الكون ، عن تلك الصغائر والتفاهات التى يخوض فيها اللاعبون !

إن حياة المسلم حياة كبيرة — لأنها منوطة بوظيفة ضخمة ، ذات ارتباط بهذا الوجود الكبير، وذات أثر فى حياة هذا الوجود الكبير. وهى أعز وأنفس من أن يقضيها فى عبث ولهو وخوض ولعب . وكثير من اهتمامات الناس فى الأرض يبدو عبثا ولهوا وخوضا ولعبا حين يقاس إلى اهتمامات المسلم الناشئة من تصوره لتلك الوظيفة الضخمة المرتبطة بحقيقة الوجود [1] .

---

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان (بحث للمؤلف يرجو أن يوفق إلى إخراجه) .

وويل لأولئك الخائضين اللاعبين : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا » .. وهو مشهد عنيف . فالدع : الدفع فى الظهور . وهى حركة غليظة تليق بالخائضين اللاعبين ، الذين لايجدّون ، ولاينتبهون إلى مايجرى حولهم من الأمور . فيساقون سوقا ويدفعون فى ظهورهم دفعا .

حتى إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم : « هذه النار التى كنتم بها تكذبون ! » . .

وبينما هم فى هذا الكرب . بين الدع والنار التى تواجههم على غير إرادة منهم . يجيئهم التذيل والتأنيب، والتلميح إلى ماسبق منهم من التكذيب: « أفسحر هذا؟ أم أنتم لاتبصرون ؟ » . فقد كانوا يقولون عن القرآن : إنه سحر . فهل هذه النار التى يرونها كذلك سحر ؟ ! أم إنه الحق الهائل الرعيب؟ أم إنهم لايبصرون هذه النار كما كانوا لايبصرون الحق فى القرآن الكريم؟!

وحين ينتهى هذا التأنيب الساخر المرير يعاجلهم بالتيئيس البئيس . « اصلوها . فاصبروا أولا تصبروا . سواء عليكم . إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

وليس أقسى على منكوب بهذه النكبة . من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء . فالعذاب واقع ، ماله من دافع . وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع . والبقاء فيه مقرر سواء صبر عليه أم هلع .. والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل. فهو جزاء له سببه الواقع فلا تغيير فيه ولا تبديل !

وبذلك ينتهى هذ المشهد الرعيب ؛ كما ينتهى الشوط الأول بإيقاعه العنيف .

***

أما الشوط الثانى فهو مثير للحس ، ولكن بما فيه من رخاء ورغد، وهتاف بالمتاع لايقاوم، وبخاصة بعد مشهد العذاب البئيس :

« إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، وماألتناهم من عملهم من شىء ، كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم ممايشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لالغو فيها ولاتأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ؛ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم » ..

والمشهد أقرب إلى مشاهد النعيم الحسى ، الذى يخاطب الشاعر فى أول العهد ، والذى يجتذب النفوس بلذائذ الحس فى صورتها المصفاة . وهو مقابل لذلك العذاب الغليظ الذى تواجه به القلوب الجاسية والقلوب اللاهية كذلك :

« إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » . .

ومجرد الوقاية من عذاب الجحيم الذى عرضت مشاهده فى هذه السورة فضل ونعمة . فكيف ومعه « جنات ونعيم » ؟ وهم يلتذون ما آتاهم ربهم ويتفكهون ؟

ومع النعيم ولذته التهنئة والتكريم :

« كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون » . .

وهذا بذاته متاع أكرم . وهم ينادون هذا النداء العلوى ، ويعلن استحقاقهم لما هم فيه :

« متكئين على سرر مصفوفة » . . منسقة يجدون فيها لذة التجمع بإخوانهم فى هذا النعيم :

« وزوجناهم بحور عين » . . وهذه تمثل أمتع ما يجول فى خواطر البشر من متاع جميل .

ويمضى التكريم خطوة فإذا ذريتهم المؤمنة تجتمع إليهم فى هذا النعيم ، زيادة فى الرعاية والعناية . ولو كانت أعمال الذرية أقل من مستوى مقام المتقين ، مادامت هذه الذرية مؤمنة . وذلك دون أن ينقص شىء من أعمال الآباء ودرجاتهم . ودون إخلال بفردية التبعة وحساب كل بعمله الذى كسبه ، إنما هو فضل الله على الجميع :

« والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم . وماألتناهم من عملهم من شىء . كل امرىء بما كسب رهين » . .

ويستطرد المشهد يعرض ألوان المناعم واللذائذ فى ذلك النعيم . فإذا فاكهة ولحم مما يشتهون . وإذا هم يتعاطون فيها كأسا ليست كخمر الدنيا تطلق اللغو والهذر من الشفاه والألسنة ، وتشيع الإثم والمعصية فى الحس والجوارح . إنما هى مصفاة مبرأة : « لا لغو فيها ولا تأثيم » . . وهم يتجاذبونها بينهم ويتعاطونها مجتمعين . زيادة فى الإيناس واللذة والنعيم . فى حين يقوم على خدمتهم ويطوف بالكأس عليهم غلمان صباح أبرياء ، فيهم نظافة ، وفيهم صيانة ، وفيهم نداوة : « كأنهم لؤلؤ مكنون » مما يضاعف إيناس المجلس اللطيف فى الجوارح والقلوب .

واستكمالا لجو المشهد المأنوس يعرض سمرهم فيما بينهم ، وتذاكرهم ماضيهم ، وأسباب ماهم فيه من أمن ورضى ورخاء ورغد وأنس ونعيم . فيكشف للقلوب عن سر هذا المتاع ، ويشير إلى الطريق المؤدى إلى هذا النعيم :

« وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم » . .

السر إذن أنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم . عاشوا فى خشية من لقاء ربهم . عاشوا مشفقين من حسابه . عاشوا كذلك وهم فى أهلهم ، حيث الأمان الخادع . ولكنهم لم ينخدعوا . وحيث الشغلة الملهية . ولكنهم لم ينشغلوا .

عندئذ من الله عليهم ووقاهم عذاب السموم ، الذى يتخلل الأجسام كالسم الحار اللاذع ! وقاهم هذا العذاب منة منه وفضلا ، لما علم من تقواهم وخشيتهم وإشفاقهم . وهم يعرفون هذا . ويعرفون أن العمل لايدخل صاحبه الجنة إلا بمنة من الله وفضل . فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ، ورغب فيما عند الله . وهذا هو المؤهل لفضل الله .

وقد كانوا مع الإشفاق والحذر والتقوى يدعون الله : « إنا كنا من قبل ندعوه » . . وهم يعرفون من صفاته البر بعباده والرحمة بعبيده : « إنه هو البر الرحيم » . .

وكذلك ينكشف سر الوصول فى تناجى هؤلاء الناجين المكرمين فى دار النعيم .

***

والآن وقد تلقى الحس سياط العذاب العنيف فى الشوط الأول ؛ وتلقى هتاف النعيم الرغيد فى الشوط الثانى ؛ وتوفزت بهذا وذلك حساسيته لتلقى الحقائق . . فإن السياق يعاجله بحملة سريعة الإيقاعات . يطارده فيها بالحقائق الصادعة ، ويتعقب وساوسه فى مسارب نفسه فى صورة استفهامات استنكارية ، وتحديات قوية ، لايثبت لها الكيان البشرى حين تصل إليه من أى طريق :

« فذكر . فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ؟ قل : تربصوا فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون : تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لايوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون . وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب مركوم » . .

« فذكر » . . والخطاب للرسول — صلى الله عليه وسلم — ليظل فى تذكيره لا يثنيه سوء أدبهم معه ، وسوء اتهامهم له . وقد كانوا يقولون عنه مرة : إنه كاهن . ويقولون عنه مرة : إنه مجنون . ويجمع بين الوصفين عندهم ما كان شائعا بينهم أن الكهان يتلقون عن الشياطين . وأن الشيطان كذلك يتخبط بعض الناس ، فيصابون بالجنون . فالشيطان هو العامل المشترك بين الوصفين : كاهن أو مجنون ! وكان يحملهم على وصف النبى — صلى الله عليه وسلم — بهذا الوصف أو ذاك ، أو بقولهم إنه شاعر أو ساحر . كان يحملهم على هذا كله موقفهم مبهوتين أمام القرآن الكريم المعجز الذى يبدههم بما لم يعهدوا من القول ، وهم أهل القول ! ولما كانوا لا يريدون — لعلة فى نفوسهم — أن يعترفوا أنه من عند الله ، فقد احتاجوا أن يعللوا مصدره المتفوق على البشر . فقالوا : إنه من إيحاء الجن أو بمساعدتهم. فصاحبه إما كاهن يتلقى من الجن ، أو ساحر يستعين بهم ، أو شاعر له رئى من الجن ، أو مجنون به مس من الشيطان ينطقه بهذا القول العجيب !

وإنها لقولة فظيعة شنيعة . فالله — سبحانه — يسلى رسوله عنها ، ويصغر من شأنها فى نفسه . وهو يشهد له أنه محوط بنعمة ربه ، التى لا تكون معها كهانة ولا جنون : « فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » . .

ثم يستنكر قولهم : إنه شاعر : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ؟ » . . وقد قالوها. وقال بعضهم لبعض : اصبروا عليه ، واثبتوا على ما أنتم فيه ، حتى يأتيه الموت ، فيريحنا منه ! وتواصوا أن يتربصوا به الموت المريح . ومن ثم يلقن الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يرد عليهم فى تهديد ملفوف : « قل : تربصوا . إنى معكم من المتربصين » . . وستعلمون من تكون له العاقبة ، ومن ينتهى به التربص إلى النصر والظهور.

ولقد كان شيوخ قريش يلقبون بذوى الحلوم . أو ذوى الأحلام . إشارة إلى رجاحة عقولهم وحكمتهم فى تصريف الأمور . فهو يتهكم بهم وبأحلامهم تجاه الإسلام . وموقفهم منه ينافى الحكمة والعقل ، فيسأل فى تهكم : أهذه الأوصاف التى يصفون بها محمدا — صلى الله عليه وسلم — وتلك المواقف التى يقفونها من رسالته كانت من وحى أحلامهم ؟ أم إنهم طغاة ظالمون لا يقفون عندما تمليه الأحلام والعقول :

« أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون » !

وفى السؤال الأول تهكم لاذع . وفى السؤال الثانى اتهام مزر . وواحد منهما لا بد لاحق بهم فى موقفهم المريب !

ولقد تطاولت ألسنتهم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاتهموه بافتراء ما يقول . فهو هنا يسأل فى استنكار : إن كانوا يقولون : تقوله :كأن هذه الكلمة لا يمكن أن تقال . فهو يسأل عنها فى استنكار : «أم يقولون تقوّله ؟ ».. ويبادر ببيان علة هذا القول الغريب : « بل لا يؤمنون » . فعدم استشعار قلوبهم للإيمان ، هو الذى ينطقهم بمثل هذا القول ؛ بعد أن يحجبهم عن إدراك حقيقة هذا القرآن . ولو أدركوها لعلموا أنه ليس من صنع بشر ؛ وأنه لا يحمله إلا صادق أمين .

وما دامت قلوبهم لا تستشعر حقيقة هذا التنزيل ؛ فهو يتحداهم إذن ببرهان الواقع الذى لا يقبل المراء : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

وقد تكرر هذا التحدى فى القرآن الكريم ؛ وتلقاه المنكرون عاجزين ، ووقفوا تجاهه صاغرين . وكذلك يقف أمامه كل أحد إلى يوم الدين .

إن فى هذا القرآن سرا خاصا ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء ، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها . إنه يشعر بسلطان خاص فى عبارات هذا القرآن . يشعر أن هنالك شيئا ما وراء المعانى التى يدركها العقل من التعبير . وأن هنالك عنصرا ما ينسكب فى الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن . يدركه بعض الناس واضحا ويدركه بعض الناس غامضا ، ولكنه على كل حال موجود . هذا العنصر الذى ينسكب فى الحس ، يصعب تحديد مصدره :أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التى تشعها؟ أهو الإيقاع القرآنى الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهى هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هى وشىء آخر وراءها غير محدود ؟ !

ذلك سر مودع فى كل نص قرآنى ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء.. ثم تأتى وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير فى بناء القرآن كله :

فى التصور الكامل الصحيح الذى ينشئه فى الحس والقلب والعقل . التصور لحقيقة الوجود الإنسانى ، وحقيقة الوجود كله ، وللحقيقة الأولى التى تنبع منها كل حقيقة . حقيقة الله سبحانه .

وفى الطريقة التى يتبعها القرآن لبناء هذا التصور الكامل الصحيح فى الإدراك البشرى .

وهو يخاطب الفطرة ، خطابا خاصا ، غير معهود مثله فى كلام البشر أجمعين ؛ وهو يقلب القلب من جميع جوانبه ومن جميع مداخله ، ويعالجه علاج الخبير بكل زاوية وكل سر فيه .

وفى الشمول والتوازن والتناسق بين توجيهاته كلها ، والاستواء على أفق واحد فيها كلها . مما لا يعهد إطلاقا فى أعمال البشر ، التى لا تستقر على حال واحدة ، ولا تستقيم على مستوى واحد ، ولا تحيط هكذا بجميع الجوانب ، ولا تملك التوازن المطلق الذى لا زيادة فيه ولا نقص ، ولا تفريط فيه ولا إفراط ، والتناسق المطلق الذى لا تعارض فيه ولا تصادم سواء فى ذلك الأصول والفروع .

فهذه الظواهر المدركة . . وأمثالها . . مع ذلك السر الخافى الذى لاسبيل إلى إنكاره . . مما يسبغ على هذا الكتاب سمة الإعجاز المطلق فى جميع العصور . وهى مسألة لا يمارى فيها إنسان يحترم حسه ، ويحترم نفسه،ويحترم الحقيقة التى تطالعه بقوة وعمق ووضوح ، حيثما واجه هذا القرآن بقلب سليم .. « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » . .

والاستفهام التالى عن حقيقة وجودهم ، هم أنفسهم، وهى حقيقة قائمة لامفر لهم من مواجهتها، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها ، من أن لهم خالقا أوجدهم هو الله سبحانه . وهو موجود بذاته . وهم مخلوقون .

« أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ » ..

ووجودهم هكذا من غير شىء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء ؛ ولايحتاج إلى جدل كثير أوقليل . أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه ولايدعيه مخلوق . وإذا كان هذان الفرضان لايقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لايبقى إلا الحقيقة التى يقولها القرآن . وهى أنهم جميعا من خلق الله الواحد الذى لايشاركه أحد فى الخلق والإنشاء ؛ فلايجوز أن يشاركه أحد فى الربوبية والعبادة .. وهو منطق واضح بسيط .

كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم . فهل هم خلقوها ؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم :

« أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لايوقنون » ..

وهم ــ ولاأى عقل يحتكم إلى منطق الفطرة ــ لايقولون : إن السماوات والأرض خلقت نفسها، أوخلقت من غير خالق . وهم كذلك لايدعون أنهم خلقوها . . وهى قائمة حيالهم سؤالا حيا يتطلب جوابا على وجوده ! وقد كانوا إذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض قالوا الله..ولكن

هذه الحقيقة لم تسكن تتضح فى إدراكهم إلى درجة اليقين الذى ينشىء آثاره فى القلب، ويحركه إلى اعتقاد واضح دقيق .. « بل لا يوقنون » ..

ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسهم أو للسماوات والأرض . فيسألهم : هل هم يملكون خزائن الله ، ويسيطرون على القبض والبسط ، والضر والنفع :

« أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطرون ؟ » ..

وإذا لم يكونوا كذلك، ولم يدعوا هذه الدعوى . فمن ذا يملك الخزائن ،ومن ذا يصيطر على مقاليد الأمور ؟ القرآن يقول : إنه الله القابض الباسط ، المدبر المتصرف . وهذا هو التفسير الوحيد لما يجرى فى الكون من قبض وبسط وتصريف وتدبير . بعد انتفاء أن يكونوا هم المالكين للخزائن المصيطرين على تصريف الأمور !

ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستماع إلى مصدر التنزيل :

« أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين » .

إن محمداً — صلى الله عليه وسلم — يقول لهم : إنه رسول يوحى إليه ، وإن هذا القرآن يتنزل عليه من الملأ الأعلى . وهم يكذبونه فيما يقول . فهل لهم سلم يستمعون فيه ، فيعلموا أن محمداً لا يوحى إليه ، وأن الحق غير ما يقول ؟ : « فليأت مستمعهم بسلطان مبين » . أى ببرهان قوى يحمل فى ذاته سلطاناً على النفوس يلجئها إلى التصديق . وفى هذا تلميح إلى سلطان القرآن الذى يطالعهم فى آياته وحججه ، وهم يكابرون فيها ويعاندون !

ثم يناقش إحدى مقولاتهم المتهافتة عن الله سبحانه . تلك التى ينسبون إليه فيها بنوة الملائكة ، الذين يتصورونهم إناثاً ؛ موجهاً الخطاب مباشرة إليهم، زيادة فى التخجيل والترذيل:

« أم له البنات ولكم البنون ؟ » .

وهم كانوا يعتبرون البنات فى درجة أقل من درجة البنين ، إلى حد أن تسود وجوههم من الكمد والكظم حين يبشرون بالأنثى . وكانوا مع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى الله ! فهو هنا يأخذهم بعرفهم وتقاليدهم ، ليخجلهم من هذا الادعاء . وهو فى ذاته متهافت لا يستقيم !

وهم كانوا يستثقلون دعوة النبى لهم إلى الهدى ؛ وهو يقدمها لهم خالصاً بريئاً ، لا يطلب عليه أجراً ، ولا يفرض عليهم إتاوة . وأيسر ما يقتضيه هذا العرض البرىء أن يستقبل صاحبه

بالحسنى ، وأن يرد بالحسنى إذا لم يقبلوا ما يقدمه لهم ويعرضه عليهم. وهو هنا يستنكر مسلكهم الذى لا داعى له يقول :

« أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ » . .

أى مثقلون من الغرم الذى تكلفهم إياه فى صورة الأجر على ماتقول ! فإذا كان الواقع أن لاأجر ولاغرامة . فكم يبدو عملهم مسترذلا قبيحا ، يخجلون منه حين يواجهون به ؟

ويعود يواجههم بحقيقة وجودهم ووضعهم فى هذا الوجود . فهم عبيد لهم حدود. مكشوف لهم من هذا الوجود بقدر . محجوب عنهم ماوراءه ، مما يختص به صاحب هذا الوجود. فهنالك غيب من اختصاص الله يقف دونه العبيد ، لاعلم لهم به ، لأنهم عبيد :

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » . .

وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب ، وأن ليس لهم به علم ، وأن ليس لهم عليه قدرة . وأنهم لايكتبون فى سجل الغيب شيئا ، إنما يكتب الله فيه مايريد ، مما يقدره للعبيد .

والذى يملك أمر الغيب وما يقدر فيه وما يدبر ، هو الذى يملك أن يدبر فيه وأن يكيد . فما لهم وهم عن الغيب محجوبون ، وفى سجله لايكتبون يكيدون لك ويدبرون ، ويحسبون أنهم قادرون على شىء من أمر المستقبل : فيقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ؟ !

« أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون » !

وهم الذين يحيق بهم مايقدره صاحب الغيب لهم ، وهم الذين يقع عليهم كيده ومكره . والله خير الماكرين .

« أم لهم إله غير الله ؟ » . . يقيهم ويتولاهم ويرد عنهم كيد الله . . « سبحان الله عما يشركون » وتنزه — سبحانه — عن تصورهم الباطل السقيم !

وبهذا التنزيه لله سبحانه عن الشرك والشركاء تختم هذه الحملة المتلاحقة الخطى ، القوية الإيقاع . وقد انكشفت كل شبهة ، ودحضت كل حجة ، ووقف القوم أمام الحقيقة العارية مجردين من كل عذر ومن كل دليل . عندئذ يقدمهم على حقيقتهم معاندين مكابرين يمارون فى الحق الواضح ، متمسكين بأدنى شبهة من بعيد :

« وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب مركوم » . .

أى إنه إذا أرسل عليهم العذاب فى صورة قطعة من السماء تسقط عليهم وفيها الهلاك ، قالوا

وهم يرونها تسقط : « سحاب مركوم » . . فيه الماء والحياة ! عنادا منهم أن يسلموا بالحق، ولو كان السيف على رقابهم كما يقولون ! ولعله يشير بهذا إلى قصة عاد . وقولهم حين رأوا سحابة الموت والدمار : « عارض ممطرنا » . . حيث كان الرد : « بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها » . .

* * *

وعند هذا الحد من تصوير عنادهم ومكابرتهم فى الحق ، ولو كان فوق رؤوسهم الهلاك ، يتجه بالخطاب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لينفض يده من أمرهم ، ويدعهم لليوم الذى ورد ذكره ووصفه فى أول السورة . وللعذاب الذى ينتظرهم من قبله . وأن يصبر لحكم ربه الذى يعزه ويرعاه ويكلؤه . وأن يسبح بحمد ربه فى الصباح حين يقوم ، ومن الليل، وعند إدبار النجوم .

« فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون. يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولاهم ينصرون . وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا، وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » . .

وهو شوط جديد فى الحملة يبدأ بالتهديد، بذلك اليوم الرعيب، يوم ينفخ فى الصور فيصعقون. — قبيل البعث والنشور — يوم لا ينفعهم تدبير ولا ينصرهم نصير . فإذا كانوا اليوم يكيدون ويدبرون ، فهم فى ذلك اليوم لا يغنى عنهم كيد ولا تدبير . على أن لهم قبل ذلك اليوم عذابا — يتركه مجهولا ولكن أكثرهم لا يعلمون .

ويفرغ بهذا التهديد الأخير من أمر المكذبين الظالمين ، الذين طاردهم هذه المطاردة الطويلة العنيفة ، لينتهى بهم إلى موقف المهدد الذى ينتظره العذاب من بعيد ومن قريب . . يفرغ منه ليلتفت إلى النبى الكريم الذى تطاول عليه المتطاولون ، وتقوّل عليه المتقولون ، يلتفت إليه — صلى الله عليه وسلم — يوجهه إلى الصبر على هذا العناء ، وهذا التكذيب ، وهذا التطاول ؛ والصبر على طريق الدعوة الشاق الطويل . تاركا الأمر لحكم الله يفعل به مايشاء : « واصبر لحكم ربك » . .

ومع التوجيه إلى الصبر إيذان بالإعزاز الربانى ، والعناية الإلهية ، والأنس الحبيب الذى يمسح على مشقات الطريق مسحا ، ويجعل الصبر عليها أمرا محببا ، وهو الوسيلة إلى هذا الإعزاز الكريم :

« واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » ..

وياله من تعبير ! وياله من تصور ! وياله من تقدير !

إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان . هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كله. حتى بين التعبيرات المشابهة .

لقد قيل لموسى عليه السلام : « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .. وقيل له : « وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني » .. وقيل له : « واصطنعتك لنفسي » ..

وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة . ولكنه قيل لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فإنك بأعيننا » وهو تعبير فيه إعزاز خاص ، وأنس خاص . وهو يلقي ظلا فريدا أرق وأشف من كل ظل .. ولا يملك التعبير البشري أن يترجم هذا التعبير الخاص . فحسبنا أن نشير إلى ظلاله ، وأن نعيش في هذه الظلال .

ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة به : « وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » .. فعلى مدار اليوم . عند اليقظة من النوم. وفي ثنايا الليل. وعند إدبار النجوم في الفجر . هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب . والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب . فكيف بقلب المحب الحبيب القريب ؟؟؟

سورة النجم مكية
وآياتها ٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ .

« أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ؟ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ؟ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ! * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰ * أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ؟ * فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ * إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا .

« فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ * وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ - إِلَّا ٱللَّمَمَ - إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ .

« أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ؟ * أَعِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ؟ * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَىٰ ؟ * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ ؟ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ؟ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ؟ * وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنْثَىٰ * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ؟ * وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ؟ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ؟ * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ؟ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ؟ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ؟ * هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰ * أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ؟ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ؟ * فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا . . . » .

هذه السورة فى عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية ، منغمة ، يسرى التنغيم فى بنائها اللفظى كما يسرى فى إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة . ويلحظ هذا التنغيم فى السورة بصفة عامة ؛

ويبدو القصد فيه واضحا في بعض المواضع ؛ وقد زيدت لفظة أو اختيرت قافية ، لتضمن سلامة التنغيم ودقة إيقاعه ـ إلى جانب المعنى المقصود الذى تؤديه فى السياق كما هى عادة التعبير القرآنى ـ مثل ذلك قوله : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » .. فلو قال ومناة الأخرى ينكسر الوزن . ولو قال: ومناة الثالثة فقط يتعطل إيقاع القافية . ولكل كلمة قيمتها فى معنى العبارة . ولكن مراعاة الوزن والقافية كذلك ملحوظة. ومثلها كلمة « إذن » فى وزن الآيتين بعدها : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! » فكلمة « إذن » ضرورية للوزن . وإن كانت ـ مع هذا ـ تؤدى غرضا فنيا فى العبارة . .. وهكذا .

ذلك الإيقاع ذو لون موسيقى خاص . لون يلحظ فيه التموج والانسياب . وبخاصة فى المقطع الأول والمقطع الأخير من السورة . وهو يتناسق بتموجه وانسيابه مع الصور والظلال الطليقة المرفرفة فى المقطع الأول . ومع المعانى واللمسات العلوية فى المقطع الأخير . وما بينهما مما هو قريب منهما فى الجو والموضوع .

والصور والظلال فى المقطع الأول،تشع من المجال العلوى الذى تقع فيه الأحداث النورانية والمشاهد الربانية التى يصفها هذا المقطع . ومن الحركات الطليقة للروح الأمين وهو يتراءى للرسول الكريم . . والصور والظلال والحركات والمشاهد والجو الروحى المصاحب ، تستمد وتمد ذلك الإيقاع التعبيرى وتمتزج به ، وتتناسق معه ، وتتراءى فيه ، فى توافق منغم عجيب .

ثم يعم ذلك العبق جو السورة كله ، ويترك آثاره فى مقاطعها التالية ، حتى تختم بإيقاع موح شديد الإيحاء مؤثر عميق التأثير . ترتعش له كل ذرة فى الكيان البشرى وترف معه وتستجيب .

***

وموضوع السورة الذى تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق:العقيدة بموضوعاتها الرئيسية : الوحى والوحدانية والآخرة . والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة تتجه إلى بيان صدق الوحى بهذه العقيدة ووثاقته ،ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمى الموهون !

والمقطع الأول فى السورة يستهدف بيان حقيقة الوحى وطبيعته،ويصف مشهدين من مشاهده ، ويثبت صحته وواقعيته فى ظل هذين المشهدين ؛ ويؤكد تلقى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن جبريل ـ عليه السلام ـ تلقى رؤية وتمكن ودقة ، واطلاعه على آيات ربه الكبرى .

ويتحدث المقطع الثانى عن آلهتهم المدعاة: اللات والعزى ومناة . وأوهامهم عن الملائكة. وأساطيرهم حول بنوتها لله . واعتمادهم فى هذا كله على الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا . بينما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعوهم إلى مادعاهم إليه عن تثبت ورؤية ويقين .

والمقطع الثالث يلقن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويشغل نفسه بالدنيا وحدها ، ويقف عند هذا الحد لا يعلم وراءه شيئا . ويشير إلى الآخرة ومافيها من جزاء يقوم على عمل الخلق ، وعلى علم الله بهم ، منذ أنشأهم من الأرض ، ومنذ كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم. فهو أعلم بهم من أنفسهم، وعلى أساس هذا العلم المستيقن ـ لا الظن والوهم ـ يكون حسابهم وجزاؤهم ، ويصير أمرهم فى نهاية المطاف

والمقطع الرابع والأخير يستعرض أصول العقيدة ـ كما هى منذ أقدم الرسالات ـ من فردية التبعة ، ودقة الحساب ، وعدالة الجزاء . ومن انتهاء الخلق إلى ربهم المتصرف فى أمرهم كله تصرف المشيئة المطلقة . ومع هذا لفتة إلى مصارع الغابرين المكذبين . تختم بالإيقاع الأخير : « هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ، ولا تبكون ، وأنتم سامدون ؟ فاسجدوا لله واعبدوا » . . حيث يلتقى المطلع والختام فى الإيحاء والصور والظلال والإيقاع العام .

* * *

« والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلاوحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أوأدنى . فأوحى إلى عبده ماأوحى . ما كذب الفؤاد مارأى . أفتمارونه على مايرى ؟ ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة مايغشى . مازاغ البصر وماطغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . .

فى هذا المطلع نعيش لحظات فى ذلك الأفق الوضيء الطليق المرفرف الذى عاش فيه قلب محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ونرف بأجنحة النور المنطلقة إلى ذلك الملإ الأعلى ؛ ونستمع إلى الإيقاع الرخى المنساب ، فى جرس العبارة وفى ظلالها وإيحائها على السواء .

نعيش لحظات مع قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكشوفة عنه الحجب ، مزاحة عنه الأستار . يتلقى من الملإ الأعلى . يسمع ويرى ، ويحفظ ماوعى . وهى لحظات خص بها ذلك القلب المصفى ؛ ولكن الله يمن على عباده ، فيصف لهم هذه اللحظات وصفا موحيا مؤثرا، ينقل

أصداءها وظلالها وإيحاءها إلى قلوبهم . يصف لهم رحلة هذا القلب المصفى ، فى رحاب الملإ الأعلى . يصفها لهم خطوة خطوة ، ومشهدا مشهدا، وحالة حالة ، حتى لكأنهم كانوا شاهديها .

ويبدأ الوصف الموحى بقسم من الله سبحانه : « والنجم إذا هوى » . . وحركة تلألؤ النجم ثم هويه ودنوه ، أشبه بمشهد جبريل المقسم عليه : « وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أوأدنى . فأوحى إلى عبده ماأوحى » . . وهكذا يبدأ التناسق والتوافق فى المشهد والحركة والظل والإيقاع منذ اللحظة الأولى .

« والنجم إذا هوى » . . وقد رويت تفسيرات مختلفة للنجم المقصود فى هذا القسم . وأقرب مايرد على الذهن أنها إشارة إلى الشعرى ، التى كان بعضهم يعبدها . والتى ورد ذكرها فى السورة فيما بعد فى قوله : « وأنه هو رب الشعرى » . . وقد كان للشعرى من اهتمام الأقدمين حظ كبير . ومما هو معروف أن قدماء المصريين كانوا يوقتون فيضان النيل بعبور الشعرى بالفلك الأعلى . ويرصدونها من أجل هذا ويرقبون حركاتها . ولها شأن فى أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء . فالأقرب أن تكون هذه الإشارة هنا إليها . ويكون اختيار مشهد هوى النجم مقصودا للتناسق الذى أشرنا إليه . ولمعنى آخر هو الإيحاء بأن النجم مهما يكن عظيما هائلا فإنه يهوى ويتغير مقامه . فلا يليق أن يكون معبودا . فالمعبود الثبات والارتفاع والدوام .

ذلك هو القسم . فأما المقسم عليه ، فهو أمر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع الوحى الذى يحدثهم عنه :

« ماضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى » . .

فصاحبكم راشد غير ضال . مهتد غير غاو : مخلص غير مغرض . مبلغ بالحق عن الحق غير واهم ولا مفتر ولا مبتدع . ولا ناطق عن الهوى فيما يبلغكم من الرسالة . إن هو إلا وحى يوحى . وهو يبلغكم ما يوحى إليه صادقا أمينا .

هذا الوحى معروف حامله . مستيقن طريقه . مشهودة رحلته . رآه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ رأى العين والقلب ، فلم يكن واهما ولا مخدوعا :

« علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أوأدنى . فأوحى إلى عبده ماأوحى . ما كذب الفؤاد مارأى . أفتمارونه على مايرى؟» . .

والشديد القوى ذو المرة « أى القوة » ، هو جبريل ــ عليه السلام ــ وهو الذى علم صاحبكم مابلغه إليكم . وهذا هو الطريق ، وهذه هى الرحلة ، مشهودة بدقائقها : استوى وهو

بالأفق الأعلى . حيث رآه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك فى مبدأ الوحى . حين رآه على صورته التى خلقه الله عليها ، يسد الأفق بخلقه الهائل . ثم دنا منه فتدلى نازلا مقتربا إليه. فكان أقرب ما يكون منه . على بعد مابين القوسين أو أدنى ـ وهو تعبير عن منتهى القرب ـ فأوحى إلى عبد الله ما أوحى . بهذا الإجمال والتفخيم والتهويل .

فهى رؤية عن قرب بعد التراءى عن بعد . وهو وحى وتعليم ومشاهدة وتيقن .

وهى حال لا يتأتى معها كذب فى الرؤية ، ولا تحتمل مماراة أو مجادلة : « ما كذب الفواد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ؟ » . . ورؤية الفؤاد أصدق وأثبت ، لأنها تنفى خداع النظر . فلقد رأى فتثبت فاستيقن فؤاده أنه الملك ، حامل الوحى ، رسول ربه إليه ، ليعلمه ويكلفه تبليغ ما يعلم . وانتهى المراء والجدال ، فما عاد لهما مكان بعد تثبت القلب ويقين الفؤاد .

وليست هذه هى المرة الوحيدة التى رآه فيها على صورته . فقد تكررت مرة أخرى :

« ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . مازاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وكان ذلك فى ليلة الإسراء والمعراج ـ على الراجح من الروايات ـ فقددنا منه ـ وهو على هيئته التى خلقه الله بها مرة أخرى « عند سدرة المنتهى » . . والسدرة كما يعرف من اللفظ شجرة . فأما أنها سدرة المنتهى . فقد يعنى هذا أنها التى ينتهى إليها المطاف . فجنة المأوى عندها. أو التى انتهت إليها رحلة المعراج . أو التى انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث وقف هو وصعد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى . . وكله غيب من غيب الله ، أطلع عليه عبده المصطفى ، ولم يرد إلينا عنه إلا هذا . وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته . فلا يدركها الإنسان إلا بمشيئة من خالقه وخالق الملائكة ، العليم بخصائص الإنسان وخصائص الملائكة . .

ويذكر ما لابس هذه الرؤية عند سدرة المنتهى زيادة فى التوكيد واليقين : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » . . مما لا يفصله ولا يحدده . فقد كان أهول وأضخم من الوصف والتحديد.

وكان ذلك كله حقا يقينا : « مازاغ البصر وما طغى » . . فلم يكن زغللة عين ، ولا تجاوز رؤية . إنما هى المشاهدة الواضحة المحققة ، التى لا تحتمل شكا ولا ظنا . وقد عاين فيها من آيات ربه الكبرى ، واتصل قلبه بالحقيقة عارية مباشرة مكشوفة .

فالأمر إذن ـ أمر الوحى ـ أمر عيان مشهود . ورؤية محققة . ويقين جازم . واتصال

مباشر . ومعرفة مؤكدة . وصحبة محسوسة . ورحلة واقعية . بكل تفصيلاتها ومراجعها . . وعلى هذا اليقين تقوم دعوة «صاحبكم» الذى تنكرون عليه وتكذبونه وتشككون فى صدق الوحى إليه . وهو صاحبكم الذى عرفتموه وخبرتموه . وما هو بغريب عنكم فتجهلوه . وربه يصدقه ويقسم على صدقه . ويقص عليكم كيف أوحى إليه . وفى أى الظروف . وعلى يد من وكيف لاقاه . وأين رآه !

* * *

ذلك هو الأمر المستيقن ، الذى يدعوهم إليه محمد — صلى الله عليه وسلم — فأما هم فعلام يستندون فى عبادتهم وآلهتهم وأساطيرهم ؟ علام يستندون فى عبادتهم للات والعزى ومناة؟ وفى ادعائهم الغامض أنهن ملائكة ، وأن الملائكة بنات الله ؟ وأن لهن شفاعة ترتجى عند الله؟ إلى أى بينة ؟ وإلى أية حجة ؟ وإلى أى سلطان يرتكنون فى هذه الأوهام ؟ هذا مايعالجه المقطع الثانى فى السورة :

« أفرأيتم اللات والعزى ،ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ماتمنى ؟ فلله الآخرة والأولى . وكم من ملك فى السماوات لاتغنى شفاعتهم شيئا ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . ومالهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لايغنى من الحق شيئا » . .

وكانت « اللات » صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب عدا قريش لأن عندهم الكعبة بيت إبراهيم عليه السلام . ويظن أن اسمها « اللات » مؤنث لفظ الجلالة « الله » . سبحانه وتعالى .

وكانت «العزى» شجرة عليها بناء وأستار بنخلة — وهى بين مكة والطائف — وكانت قريش تعظمها . كما قال أبو سفيان يوم أحد . لنا العزى ولاعزى لكم . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « قولوا : الله مولانا ولامولى لكم » . ويظن أن اسمها « العزى » مؤنث « العزيز » . .

وكانت « مناة » بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة. وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتهم يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

وكان بالجزيرة كثير من هذه المعبودات تعظمها القبائل المختلفة . ولكن هذه الثلاثة كانت أعظمها .

والمظنون أن هذه المعبودات كانت رموزا للملائكة يعتبرهن العرب إناثا ويقولون : إنهن بنات الله . ومن هنا جاءت عبادتها ، والذي يقع غالبا أن ينسى الأصل ، ثم تصبح هذه الرموز معبودات بذاتها عند جمهرة العباد . ولاتبقى إلاقلة متنورة هي التي تذكر أصل الأسطورة !

فلما ذكر الله هذه المعبودات الثلاثة معجبا منها ومن عبادتها كما تفيد صيغة السؤال ولفظه :

« أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ؟ » . .

والتعجيب والتشهير واضح في افتتاح السؤال : « أفرأيتم ؟ » وفي الحديث عن مناة . . الثالثة الأخرى . .

لما ذكر الله هذه المعبودات عقب عليها باستنكار دعواهم أن لله الإناث وأن لهم الذكور :

« ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى » . .

مما يوحي بأن لهذه المعبودات صلة بأسطورة أنوثة الملائكة ، ونسبتها إلى الله سبحانه . مما يرجح ماذكرناه عنها . وقد كانوا هم يكرهون ولادة البنات لهم . ومع هذا لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثا ــ وهم لا يعلمون عنهم شيئا يلزمهم بهذا التصور . وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله !

والله ــ سبحانه ــ يأخذهم هنا بتصوراتهم وأساطيرهم ؛ ويسخر منها ومنهم : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ » .. إنها إذن قسمة غير عادلة قسمتكم بين أنفسكم وبين الله ! « تلك إذن قسمة ضيزى ! » . .

والمسألة كلها وهم لا أساس له من العلم ولا من الواقع . ولا حجة فيها ولا دليل :

« إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس . ولقد جاءهم من ربهم الهدى » !

هذه الأسماء . اللات . العزى . مناة .. وغيرها . وتسميتها آلهة وتسميتها ملائكة . وتسمية الملائكة إناثا . وتسمية الإناث بنات الله . . . كلها أسماء لا مدلول لها ، ولا حقيقة وراءها .

ولم يجعل الله لكم حجة فيها . وكل مالم يقرره الله فلا قوة فيه ولا سلطان له . لأنه لاحقيقة له . وللحقيقة ثقل . وللحقيقة قوة . وللحقيقة سلطان . فأما الأباطيل فهي خفيفة لاوزن لها . ضعيفة لاقوة لها . مهينة لاسلطان فيها .

وفى منتصف الآية يتركهم وأوهامهم وأساطيرهم ، ويترك خطابهم ، ويلتفت عنهم كأنهم لا وجود لهم ، ويتحدث عنهم بصيغة الغائب : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » . . فلا حجة ولا علم ولا يقين . إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة ، والهوى يستمدون منه الدليل . والعقيدة لامجال فيها للظن والهوى ؛ ولا بد فيها من اليقين القاطع والتجرد من الهوى والغرض .. وهم لم يتبعوا الظن والهوى ولهم عذر أو علة : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . . فانقطع العذر وبطل التعلل !

ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر ، ولن يجدى هدى ؛ لأن العلة هنا ليست خفاء الحق ، ولا ضعف الدليل . إنما هى الهوى الجامح الذى يريد ، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد ! وهى شر حالة تصاب بها النفس فلا ينفعها الهدى ، ولا يقنعها الدليل !

ومن ثم يسأل فى استنكار :

« أم للإنسان ما تمنى ؟ » . .

فكل مايتمنى يتحول إلى حقيقة وكل مايهوى ينقلب إلى واقع ! والأمر ليس كذلك . فإن الحق حق والواقع واقع . وهوى النفس ومناها لا يغيران ولا يبدلان فى الحقائق . إنما يضل الإنسان بهواه ، ويهلك بمناه . وهو أضعف من أن يغير أو يبدل فى طبائع الأشياء . وإنما الأمر كله لله يتصرف فيه كما يشاء فى الدنيا وفى الآخرة سواء :

« فلله الآخرة والأولى » . .

ولا ننسى أن نلحظ هنا تقديم الآخرة على الأولى . لمراعاة قافية السورة وإيقاعها . إلى جانب النكتة المعنوية المقصودة بتقديم الآخرة على الأولى . كما هى طبيعة الأسلوب القرآنى فى الجمع بين أداء المعنى وتنغيم الإيقاع . دون إخلال بهذا على حساب ذاك ! شأنه شأن كل ماهو من صنع الله . فالجمال فى الكون كله يتناسق مع الوظيفة ويؤاخيها !

وإذا خلص الأمر كله لله فى الآخرة والأولى . فإن أوهام المشركين عن شفاعة الآلهة المدعاة — من الملائكة — لهم عند الله . كما قالوا : « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . . إن هذه

الأوهام لاأصل لها . فالملائكة الحقة فى السماء لاتملك الشفاعة إلاحين يأذن الله فى شىء منها :

« وكم من ملك فى السماوات لاتغنى شفاعتهم شيئا . إلامن بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » . .

ومن ثم تسقط دعواهم من أساسها . فوقمافيها من بطلان تولى تفنيده فى الآيات السابقة. وتتجرد العقيدة من كل غبش أوشبهة . فالأمر لله فى الآخرة والأولى. ومنى الإنسان لاتغير من الحق الواقع شيئا . والشفاعة لاتقبل إلابإذن من الله ورضى . فالأمر إليه فى النهاية . والاتجاه إليه وحده فى الآخرة والأولى .

وفى نهاية الفقرة يناقش للمرة الأخيرة أوهام المشركين — الذين لايؤمنون بالآخرة — عن الملائكة ؛ ويكشف عن أساسها الواهى ، الذى لاينبغى أن تقوم عليه عقيدة أصلا :

« إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . ومالهم به من علم . إن يتبعون إلاالظن ، وإن الظن لايغنى عن الحق شيئا » . .

وهذا التعقيب الأخير يوحى بعلاقة اللات والعزى ومناة بأسطورة أنوثة الملائكة ونسبتهم إلى الله سبحانه ! وهى أسطورة واهية ، لايتبعون فيها إلاالظن. فليس لهم من وسيلة لأن يعلموا شيئا مستيقنا عن طبيعة الملائكة . فأما نسبتهم إلى الله . فهى الباطل الذى لادليل عليه إلاالوهم الباطل ! وكل هذا لايغنى عن الحق ، ولايقوم مقامه فى شىء . الحق الذى يتركونه ويستغنون عنه بالأوهام والظنون !

* * *

وحين يبلغ إلى هذا الحد من بيان وهن عقيدة الشرك وتهافتها عند الذين لايؤمنون بالآخرة، ويشركون بالله ، وينسبون له البنات ويسمون الملائكة تسمية الأنثى ! يتجه بالخطاب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليهمل شأنهم ويعرض عنهم ، ويدع أمرهم لله الذى يعلم المسىء والمحسن ، ويجزى المهدى والضال ، ويملك أمر السماوات والأرض ، وأمر الدنيا والآخرة ، ويحاسب بالعدل لا يظلم أحدا ، ويتجاوز عن الذنوب التى لايصر عليها فاعلوها . وهو الخبير بالنوايا والطوايا ، لأنه خالق البشر المطلع على حقيقتهم فى أطوار حياتهم جميعا :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . ولله مافى السماوات وما فى الأرض

ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش — إلا اللمم — إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم . فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى » . .

هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله ، ولم يؤمن بالآخرة ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا . موجه ابتداء إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث فى السورة عن أساطيرهم وأوهامهم وعدم إيمانهم بالآخرة .

وهو موجه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجه من يتولى عن ذكر الله ويعرض عن الإيمان به ؛ ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها ، لا ينظر إلى شىء وراءها ، ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها . ويرى أن حياة الإنسان على هذه الأرض هى غاية وجوده ، لا غاية بعدها ؛ ويقيم منهجه فى الحياة على هذا الاعتبار ، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبر أمره ، ويحاسبه على عمله ، بعد رحلة الأرض المحدودة . وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة فى زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية .

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله — فضلا على أن يعامل أو يعايش — من يعرض عن ذكر الله ، وينفى الآخرة من حسابه . لأن لكل منهما منهجا فى الحياة لا يلتقيان فى خطوة واحدة من خطواته ، ولا فى نقطة واحدة من نقاطه . وجميع مقاييس الحياة ، وجميع قيمها ،وجميع أهدافها ، تختلف فى تصور كل منهما . فلا يمكن إذن أن يتعاونا فى الحياة أى تعاون ، ولا أن يشتركا فى أى نشاط على هذه الأرض . مع هذا الاختلاف الرئيسى فى تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها ، وغاية هذا النشاط . ومادام التعاون والمشاركة متعذرين فما داعى الاهتمام والاحتفال ؟ إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله ولا يريدون إلا الحياة الدنيا. وينفق طاقته التى وهبه الله إياها فى غير موضعها .

على أن للإعراض اتجاها آخر ، هو التهوين من شأن هذه الفئة. فئة الذين لا يؤمنون بالله؛ ولا يبتغون شيئا وراء الحياة الدنيا . فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة ، قاصرون عن إدراكها ، واقفون وراء الأسوار . أسوار الحياة الدنيا . . « ذلك مبلغهم من العلم » . وهو مبلغ تافه مهما بدا عظيما . قاصر مهما بدا شاملا . مضلل مهما بدا هاديا . ومايمكن أن يعلم شيئا ذا قيمة من يقف بقلبه وحسه وعقله عند حدود هذه الأرض . ووراءها — حتى فى رأى العين —

عالم هائل لم يخلق نفسه . ووجوده هكذا أمر ترفضه البداهة . ولم يوجد عبثا متى كان له خالق. وإنه لعبث أن تكون الحياة الدنيا هى نهاية هذا الخلق الهائل وغايته . . فإدراك حقيقة هذا الكون من أى طرف من أطرافها كفيل بالإيمان بالخالق . وكفيل كذلك بالإيمان بالآخرة . نفيا للعبث عن هذا الخالق العظيم الذى يبدع هذا الكون الكبير .

ومن ثم يجب الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويقف عند حدود الدنيا ، الإعراض على سبيل صيانة الاهتمام أن يبذل فى غير موضعه والإعراض على سبيل التهوين والاحتقار لمن هذا مبلغ علمه . ونحن مأمورون بهذا إن أردنا أن نتلقى أمر الله لنطيعه . لانقول كما قالت يهود : سمعنا وعصينا . . والعياذ بالله من هذا !

« إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » . .

وقد علم أن هؤلاء ضالون . فلم يرد لنبيه ولاللمهتدين من أمته أن يشغلوا أنفسهم بشأن الضالين . ولاأن يصاحبوهم . ولاأن يحفلوهم . ولاأن يخدعوا فى ظاهر علمهم المضلل القاصر ، الذى يقف عند حدود الحياة الدنيا . ويحول بين الإدراك البشرى والحقيقة الخالصة، التى تقود من يدركها إلى الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، وتتخطى به حدود هذه الأرض القريبة ، وهذه الحياة الدنيا المحدودة .

وإن العلم الذى يبلغه هؤلاء القاصرون الضالون ليبدو فى أعين العوام وأشباههم . عوام القلب والإدراك والحس . شيئا عظيما ذا فاعلية وأثر فى واقع الحياة الدنيا . ولكن هذا لاينفى صفة الضلال عنهم فى النهاية ، ولاصفة الجهل والقصور . فحقيقة الارتباط بين هذا الوجود وخالقه . وحقيقة الارتباط بين عمل الإنسان وجزائه . هاتان الحقيقتان ضروريتان لكل علم حق . وبدونهما يبقى العلم قشورا لاتؤثر فى حياة الإنسان ولاترقيها ولاترفعها . وقيمة كل علم مرهونة بأثره فى النفس وفى ارتباطات البشر الأدبية . وإلافهو تقدم فى الآلات وانتكاس فى الآدميين . ومأأبأسه من علم هذا الذى ترتقى فيه الآلات على حساب الآدميين !!!

وشعور الإنسان بأن له خالقا خلقه وخلق هـذا الكون كله ، وفق ناموس واحد متناسق . يغير من شعوره بالحياة ، وشعوره بما حوله وبمن حوله ؛ ويجعل لوجوده قيمة وهدفا وغاية أكبر وأشمل وأرفع ، لأن وجـوده مرتبط بهـذا الكون كله ؛ فهو أكبر من ذاته المعدودة الأيام . وأكبر من أسرته المعدودة الأفراد . وأكبر من قومه ، وأكبر من وطنه ،

وأ كبر من طبقته التى يطنطن بها أصحاب المذاهب المادية الجديثة . وأرفع من اهتمامات هـذه التشكيلات جميعا !

وشعور الإنسان بأن خالقه محاسبه فى الآخرة ومجازيه . يغير من تصوراته ومن موازينه ومن حوافزه ومن أهدافه . ويربط الحاسة الأخلاقية فى نفسه بمصيره كله ، فيزيدها قوة وفاعلية . لأن هلاكه أو نجـاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرهـا فى نيته وعمله . ومن ثم يقوى « الإنسان » ويسيطر على تصرفات هـذا الـكائن . لأن الرقيب الحارس قد استيقظ ! ولأن الحساب الختامى ينتظره هناك . ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره فى الحساب الختامى . حتى لو رآه ينهزم فى الأرض فى بعض الجولات ! وهو مكاف دائما أن ينصر الخير ويكافح فى سبيله سواء هزم فى هذه الأرض أو انتصر لأن الجزاء النهائى هناك !

إنهـا مسألة كبيرة هذا الإيمان بالله والإيمان بالآخرة . مسألة أساسية فى حياة البشر . إنها حاجة أ كبر من حاجات الطعام والشراب والـكساء . وإنها إما أن تكون فيكون « الإنسان» وإما ألا تـكون فهو حيوان من ذلك الحيوان !

وحين تفترق المعايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف ، فلا مجال حينئذ إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام .

ومن ثم لايمكن أن تقوم علاقة أو صحبة أو شركة أو تعاون ، أو أخذ وعطاء ، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله ، وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا. وكل قول غيرهذا فهو محال ومراء ، يخالف عن أمر الله : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » . . .

« ولله مافى السماوات وما فى الأرض . ليجزى الذين أساءوا بمـا عمـلوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . .

وهذا التقرير لملـكية الله ــ وحده ــ لمـا فى السماوات ومافى الأرض ، يمنح قضية الآخرة قوة وتأثيرا . فالذى جعل الآخرة وقدرها هو الذى يملك مافى السماوات ومافى الأرض وحده ، فهو القادر على الجزاء ، المختص به ، المـالك لأسبابه . ومن شأن هذه الملـكية أن تحقق الجزاء الـكامل العادل : « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . .

ثم يحدد الذين أحسنوا هؤلاء ، والذين يجزيهم بالحسنى . . فهم :

« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلااللمم » . .

وكبائر الإثم هى كبار المعاصى . والفواحش كل ماعظم من الذنب وفحش . واللمم تختلف الأقوال فيه . فابن كثير يقول : وهـذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغار الذنوب ومحقرات الأعمال . قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه .عن ابن عباس قال : مارأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبوهريرة ، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله تعالى إذا كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لامحالة . فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أويكذبه » (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد ابن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن ثور ، حدثنا معمر ، عن الأعمش ، عن أبى الضحى أن ابن مسعود قال : زنا العين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشى . ويصدق ذلك الفرج أويكذبه . فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلافهو اللمم . وكذا قال مسروق والشعبى .

وقال عبد الرحمان ابن نافع الذى يقال له ابن لبابة الطائفى ، قال : سألت أباهريرة عن قول الله : « إلااللمم » قال : القبلة والنظرة والغمزة والمباشرة . فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل . وهو الزنا .

فهذه أقوال متقاربة فى تعريف اللمم .

وهناك أقوال أخرى :

قال على ابن طلحة عن ابن عباس : « إلا اللمم » إلا ماسلف . وكذا قال زيد ابن أسلم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة عن منصور ، عن مجاهد ، أنه قال فى هذه الآية : « إلا اللمم » قال : الذى يلم بالذنب ثم يدعه .

وقال ابن جرير : حدثنى سليمان ابن عبد الجبار : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا عن ابن إسحاق ، عن عمرو ابن دينـار ، عن عطاء ، عن ابن عباس : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » . . قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب . وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما ؟

---

(١) أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق .

وهكذا رواه الترمذى عن أحمد ابن عثمان البصرى عن أبى عاصم النبيل . ثم قال : هذا حديث صحيح حسن غريب لانعرفه إلا من حديث زكريا ابن إسحاق . وكذا قال البزار لانعلمه يروى متصلا إلا من هذا الوجه .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد ابن عبد الله ابن بزيع . حدثنا يزيد ابن زريع . حدثنا يونس ، عن الحسن ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — (أراه رفعه) فى « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » . قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود . واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود . واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود . قال : فذلك الإلمام . .

وروى مثل هذا موقوفا على الحسن .

فهذه طائفة أخرى من الأقوال تحدد معنى اللمم تحديدا غير الأول .

والذى نراه أن هذا القول الأخير أكثر تناسبا مع قوله تعالى بعد ذلك : « إن ربك واسع المغفرة» . . فذكر سعة المغفرة يناسب أن يكون اللمم هو الإتيان بتلك الكبائر والفواحش، ثم التوبة . ويكون الاستثناء غير منقطع . ويكون الذين أحسنوا هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلا أن يقعوا فى شىء منها ثم يعودوا سريعا ولا يلجوا ولا يصروا . كما قال الله سبحانه : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله — ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون » . . وسمى هؤلاء « المتقين » ووعدهم مغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض [1] . . فهذا هو الأقرب إلى رحمة الله ومغفرته الواسعة .

وختم الآية بأن هذا الجزاء بالسوءى وبالحسنى مستند إلى علم الله بحقيقة دخائل الناس فى أطوارهم كلها .

« هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذا أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم » . .

فهو العلم السابق على ظاهر أعمالهم . العلم المتعلق بحقيقتهم الثابتة ، التى لا يعلمونها هم ، ولا يعرفها إلا الذى خلقهم . علم كان وهو ينشىء أصلهم من الأرض وهم بعد فى عالم الغيب . وكان وهم أجنة فى بطون أمهاتهم لم يروا النور بعد . علم بالحقيقة قبل الظاهر . وبالطبيعة قبل العمل .

---

(١) سورة آل عمران [١٣٣ — ١٣٦].

ومن كانت هذه طبيعة علمه يكون من اللغو — بل من سوء الأدب — أن يعرّفه إنسان بنفسه، وأن يعلمه — سبحانه — بحقيقته ! وأن يثني على نفسه أمامه يقول له : أنا كذا وأنا كذا :

« فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » . .

فما هو بحاجة إلى أن تدلوه على أنفسكم ، ولا أن تزنوا له أعمالكم ؟ فعنده العلم الكامل . وعنده الميزان الدقيق . وجزاؤه العدل . وقوله الفصل . وإليه يرجع الأمر كله .

* * *

بعد ذلك يجيء المقطع الأخير في السورة. في إيقاع كامل التنغيم . أشبه بإيقاع المقطع الأول . يقرر الحقائق الأساسية للعقيدة كما هي ثابتة منذ إبراهيم صاحب الحنيفية الأولى . ويعرف البشر بخالقهم ، بتعليمهم بمشيئته الفاعلة المبدعة المؤثرة في حياتهم. ويعرض آثارها واحدا واحدا بصورة تلمس الوجدان البشري وتذكره وتهزه هزا عميقا . . حتى إذا كان الختام وكان الإيقاع الأخير تلقته المشاعر مرتجفة مرتعشة متأثرة مستجيبة :

« أفرأيت الذي تولى ، وأعطى قليلا وأكدى ؟ أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى. ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى . وأنه هو رب الشعرى . وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى . فبأي آلاء ربك تتمارى ؟

« هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون ؟

« فاسجدوا لله واعبدوا » . .

وذلك « الذي تولى ، وأعطى قليلا وأكدى » . . الذي يعجب الله من أمره الغريب ، تذكر بعض الروايات أنه فرد معين مقصود ، أنفق قليلا في سبيل الله ، ثم انقطع عن البذل خوفا من الفقر . ويحدد الزمخشري في تفسيره « الكشاف » شخصه أنه عثمان ابن عفان — رضي الله عنه — ويذكر في ذلك قصة ، لا يستند فيها إلى شيء ، ولا يقبلها من يعرف عثمان — رضي الله عنه —

وطبيعته وبذله الكثير الطويل فى سبيل الله بلاتوقف وبلاحساب كذلك ؛ وعقيدته فى الله وتصوره لتبعة العمل وفرديته (١) .

وقد يكون المقصود شخصا بذاته . وقد يكون نموذجا من الناس سواء . فالذى يتولى عن هذا النهج ، ويبذل من ماله أومن نفسه لهذه العقيدة ثم يكدى — أى يضعف عن المواصلة ويكف — أمره عجيب ، يستحق التعجيب . ويتخذ القرآن من حاله مناسبة لعرض حقائق العقيدة وتوضيحها .

« أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ » . .

والغيب لله . لايراه أحد سواه . فلايأمن الإنسان ماخبىء فيه ؛ وعليه أن يواصل عمله وبذله ، وأن يعيش حذرا موفيا طوال حياته؛وألايبذل ثم ينقطع ،ولاضمان له فى الغيب المجهول إلاحذره وعمله ووفاؤه ، ورجاؤه بهذا كله فى مغفرة الله وقبوله .

« أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ... » . .

وهذا الدين قديم ، موصولة أوائله وأواخره ، ثابتة أصوله وقواعده ، يصدّق بعضه بعضا على توالى الرسالات والرسل،وتباعد المكان والزمان . فهو فى صحف موسى .وهو فى ملة إبراهيم قبل موسى . إبراهيم الذى وفّى .وفى بكل شىء.وفى وفاءمطلقا استحق بههذا الوصف المطلق . ويذكر الوفاء هنا فى مقابل الإكداء والانقطاع، ويذكر بهذه الصيغة (وفّى) بالتشديد تنسيقا للإيقاع النغم وللقافية المطردة .

فماذا فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ؟ فيها :

« ألاتزر وازرة وزر أخرى » . .

فلاتحمل نفس حمل أخرى ؛ لاتخفيفا عن نفس ولا تثقيلا على أخرى . فلاتملك نفس أن تخفف من حملها ووزرها . ولاتملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئا !

---

(١) قال : « روى أن عثمان — رضى الله عنه — كان يعطى ماله فى الخير . فقال له عبد الله ابن سعد ابن أبى سرح — وهو أخوه من الرضاعة — يوشك أن لايبقى لك شىء . فقال عثمان : إن لى ذنوبا وخطايا . وإنى أطلب بما أصنع رضى الله تعالى ، وأرجو عفوه . فقال عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ! فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن العطاء . فنزلت ! » . . . وهى رواية ظاهرة البطلان . فما هكذا يتصور عثمان !

« وأن ليس للإنسان إلاماسعى » ..

كذلك . فما يحسب للإنسان إلا كسبه وسعيه وعمله . لايزاد عليه شيء من عمل غيره . ولاينقص منه شيء ليناله غيره . وهذه الحياة الدنياهي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى. فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل. إلامانص عليه حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله: « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلامن ثلاث : من ولد صالح يدعو له . أوصدقة جارية من بعده . أوعلم ينتفع به » [1] .. وهذه الثلاثة في حقيقتها من عمله . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي ـ رحمه الله ـ ومن اتبعه أن القراءة لايصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولهذا لم يندب إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته ، ولاحثهم عليه، ولاأرشدهم إليه بنص ولاإيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ ولو كان خيرا لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولايتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليها [2] ..

« وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . .

فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب ؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق. وسينال كل امرئ جزاء سعيه وافيا كاملا لانقص فيه ولا ظلم .

وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء . فتتحقق للإنسان قيمته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقا راشدا مسؤولا مؤتمنا على نفسه ؛ كريما تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء . عدالة مطلقة لايميل بها الهوى ، ولا يقعد بها القصور ، ولا ينقص منها الجهل بحقائق الأمور .

« وأن إلى ربك المنتهى » . .

فلا طريق إلا الطريق الذى ينتهى إليه . ولا ملجأ من دونه . ولا مأوى إلا داره : في نعيم أو جحيم . . ولهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الإنسان وتصوره . فحين يحس أن المنتهى إلى الله . منتهى كل شيء . وكل أمر . وكل أحد . فإنه يستشعر من أول الطريق نهايته التى لا مفر منها ولا محيص عنها . ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة ؛ أو يحاول في هذا ما يستطيع . ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق !

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ـ بإسناده ـ عن أبي هريرة .
(٢) ابن كثير في التفسير .

وبعد مايصل السياق بالقلب البشرى إلى نهاية المطاف يكر راجعا به إلى الحيـاة ؛ يريه فيها آثار مشيئة الله . فى كل مرحلة ، وفى كل حال :

« وأنه هو أضحك وأبـكى » . .

وتحت هذا النص تـكمن حقائق كثيرة . ومن خلاله تنبعث صور وظلال موحية مثيرة . .

أضحك وأبـكى . . فأودع هـذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البـكاء . وهما سر من أسرار التـكوين البشرى لا يدرى أحد كيف هما ، ولا كيف تقعان فى هـذا الجهاز المركب المعقد ، الذى لا يقل تركيبه وتعقيده النفسى عـن تركيبه وتعقيده العضوى . والذى تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيـه وتتشابـكان وتتفاعلان فى إحـداث الضحك وإحداث البـكاء .

وأضحك وأبـكى . . فأنشأ للإنسان دواعى الضحك ودواعى البـكاء . وجعله ــ وفق أسرار معقدة فيه ــ يضحك لهذا ويبكى لهذا . وقد يضحك غدا مما أبـكاه اليوم . ويبكى اليوم مما أضحكه بالأمس . فى غير جنون ولا ذهول إنما هى الحالات النفسية المتقلبة . والموازين والدواعى والدوافع والاعتبارات التى لا تثبت فى شعوره على حال !

وأضحك وأبـكى . . فجعل فى اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين . كل حسب المؤثرات الواقعة عليه . وقد يضحك فريق مما يبكى منه فريق . لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك . . وهو هو فى ذاته . ولـكنه بملابساته بعيد من بعيد !

وأضحك وأبكى . من الأمر الواحد صاحبه نفسه . يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبته غدا أو جرائره فإذا هو باك . يتمنى أن لم يـكن فعل وأن لم يـكن ضحك . وكم من ضاحك فى الدنيا باك فى الآخرة حيث لاينفع البـكاء !

هذه الصور والظلال والمشاعر والأحوال . . وغيرها كثير تنبثق من خلال النص القصير، وتتراءى للحس والشعور . وتظل حشود منها تنبثق من خلاله كلما زاد رصيد النفس من التجارب ؛ وكلما تجددت عوامل الضحك والبـكاء فى النفوس ــ وهذا هو الإعجاز فى صورة من صوره الـكثيرة فى هذا القرآن .

« وأنه هو أماتَ وأحيا » . .

وكذلك تنبثق من هذا النص صور لاعداد لها فى الحس .

أمات وأحيا.. أنشأ الموت والحياة ، كما قال فى سورة أخرى : « الذى خلق الموت والحياة » . وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعهما المتكرر. ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما وسرهما الخافى على الأحياء .. فما الموت ؟ وما الحياة ؟ ماحقيقتهما حين يتجاوز الإنسان لفظهما وشكلهما الذى يراه ؟ كيف دبت الحياة فى الكائن الحى ؟ ماهى ؟ ومن أين جاءت ؟ وكيف تلبست بهذا الكائن فكان ؟ وكيف سارت فى طريقها الذى سارت فيه بهذا الكائن أو بهذه الكائنات الأحياء ؟ وماالموت ؟ وكيف كان..قبل دبيب الحياة. وبعد مفارقتها للأحياء ؟ إنه السر الخافى وراء الستر المسبل ، بيد الله !

أمات وأحيا .. وتنبثق ملايين الصور من الموت والحياة . فى عوالم الأحياء كلها .فى اللحظة الواحدة . فى هذه اللحظة . كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت . وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة . ودب فيها هذا السر من حيث لاتعلم ومن حيث لايعلم أحد إلاالله ! وكم من ميتات وقعت فإذا هى ذاتها بواعث حياة ! وكم من هذه الصور يتراءى على مدار القرون ، حين يستغرق الخيال فى استعراض الماضى الطويل ، الذى كان قبل أن يكون الإنسان كله على هذا الكوكب . وندع مايعلمه الله فى غير هذا الكوكب من أنواع الموت والحياة التى لاتخطر على بال الإنسان !

إنها حشود من الصور وحشود ، تطلقها هذه الكلمات القلائل ، فتهز القلب البشرى من أعماقه . فلايتمالك نفسه ولايتماسك تحت إيقاعاتها المنوعة الأصداء !

« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » . .

وهى الحقيقة الهائلة الواقعة المتكررة فى كل لحظة . فينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه ، وهى أعجب من كل عجيبة تبدعها شطحات الخيال !

نطفة تمنى . . تراق . . إفراز من إفرازات هذا الجسد الإنسانى الكثيرة كالعرق والدمع والمخاط ! فإذا هى بعد فترة مقدورة فى تدبير الله . . إذا هى ماذا ؟ إذا هى إنسان ! وإذا هذا الإنسان ذكر وأنثى ! كيف ؟ كيف تمت هذه العجيبة التى لم تكن ــ لولا وقوعها ــ تخطر على الخيال؟ وأين كان هذا الإنسان المركب الشديد التركيب ، المعقد الشديد التعقيد ؟ أين كان كامنا فى النقطة المراقة من تلك النطفة . بل فى واحد من ملايين من أجزائها الكثيرة ؟ أين كان كامنا بعظمه ولحمه وجلده ، وعروقه وشعره وأظافره . وسماته وشياته وملامحه . وخلائقه وطباعه

واستعداداته ؟ ! أين فى هذه الخلية الميكروسكوبية السابحة هى وملايين من أمثالها فى النقطة الواحدةمن تلك النطفة التى تمنى ؟ ! وأين على وجه التخصيص كانت خصائص الذكروخصائص الأنثى فى تلك الخلية . تلك التى انبثقت وأعلنت عن نفسها فى الجنين فى نهايةالمطاف ؟ !

وأى قلب بشرى يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة . ثم يتمالك أو يتماسك . فضلا على أن يجحد ويتبجح ، ويقول : إنها وقعت هكذا والسلام ! وسارت فى طريقها هكذا والسلام ! واهتدت إلى خطها المرسوم هكذا والسلام ! أو يتعالم فيقول : إنها سارت هذه السيرة بحكم ماركب فيها من استعداد لإعادة نوعها ، شأنها شأن سائر الأحياء المزودة بهذا الاستعداد ! فهذا التفسير يحتاج بدوره إلى تفسير . فمن ذا أودعها هذا الاستعداد ؟ من ذا أودعها الرغبة الكامنة فى حفظ نوعها بإعادته مرة أخرى ؟ ومن ذا أودعها القدرة على إعادته وهىضعيفة ضئيلة ؟ ومن ذا رسم لها الطريقلتسير فيه على هدى ، وتحقق هذه الرغبة الكامنة؟ ومن ذا أودع فيها خصائص نوعها لتعيدها ؟ وما رغبتها هى وما مصلحتها فى إعادة نوعها بهذه الخصائص ؟ لولا أن هنالك إرادة مدبرة من ورائها تريد أمرا ، وتقدر عليه ، وترسم له الطريق ؟ !

ومن النشأة الأولى. وهى واقعة مكرورة لاينكرها منكر ،يتجهمباشرةإلىالنشأةالأخرى .

« وأن عليه النشأة الأخرى » . .

والنشأة الأخرى غيب . ولكن عليه من النشأة الأولى دليل . دليل على إمكان الوقوع . فالذى خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، قادر ـ ولا شك ـ على إعادة الخلق من عظام ورفات . فليست العظام والرفات بأهون من الماء المراق ! ودليل على حكمة الوقوع . فهذا التدبير الخفى الذى يقود الخلية الحية الصغيرة فى طريقها الطويل الشاق حتى تكون ذكرا أو أنثى . هذا التدبير لابد أن يكون مداه أبعد من رحلة الأرض التى لا يتم فيها شىء كامل ؛ ولا يجد المحسن جزاء إحسانه كاملا ، ولا المسىء جزاء إساءته كاملا كذلك . لأن فى حساب هذا التدبير نشأة أخرى يبلغ فيها كل شىء تمامه . فدلالة النشأة الأولى على النشأة الأخرى مزدوجة . ومن هنا جاء ذكرها هكذا قبل النشأة الأخرى . .

وفى النشأة الأولى . وفى النشأة الأخرى . يغنى الله من يشاء من عباده ويُقنيه :

« وأنه هو أغنى وأقنى » . .

أغنى من عباده من شاء فى الدنيا بأنواع الغنى وهى شتى . غنى المال . وغنى الصحة . وغنى الذرية . وغنى النفس . وغنى الفكر . وغنى الصلة بالله والزاد الذى ليس مثله زاد .

وأغنى من عباده من شاء فى الآخرة من غنى الآخرة !

وأقنى من شاء من عباده من كل مايقتنى فى الدنيا كذلك وفى الآخرة !

والخلق فقراء محاوِن . لايغتنون ولايقتنون إلامن خزائن الله . فهو الذى أغنى . وهو الذى أقنى . وهى لمسة من واقع مايعرفون وماتتعلق به أنظارهم وقلوبهم هنا وهناك . ليتطلعوا إلى المصدر الوحيد . ويتجهوا إلى الخزائن العامرة وحدها ، وغيرها خواء !

« وأنه هو رب الشعرى » ..

والشعرى نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونوره خمسون ضعف نور الشمس . وهى أبعد من الشمس بمليون ضعف بعد الشمس عنا .

وقد كان هناك من يعبد هذا النجم . وكان هناك من يرصده كنجم ذى شأن . فتقرير أن الله هو رب الشعرى له مكانه فى السورة التى تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى ؛ وتتحدث عن الرحلة إلى الملأ الأعلى ؛ كما تستهدف تقرير عقيدة التوحيد ، ونفى عقيدة الشرك الواهية المتهافتة .

وبهذا تنتهى تلك الجولة المديدة فى الأنفس والآفاق ، لتبدأ بعدها جولة فى مصارع الغابرين ، بعد ما جاءتهم النذر فكذبوا بها كما يكذب المشركون . وهى جولة مع قدرة الله ومشيئته وآثارها فى الأمم قبلهم واحدة واحدة .

« وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ماغشى . فبأى آلاء ربك تتمارى ؟ »

إنها جولة سريعة . تتألف من وقفة قصيرة على مصرع كل أمة ، ولمسة عنيفة تخز الشعور وخزا .

وعاد وثمود وقوم نوح يعرفهم قارىء القرآن فى مواضع شتى ! والمؤتفكة هى أمة لوط . من الإفك والبهتان والضلال .. وقد أهواها فى الهاوية وخسف بها « فغشاها ماغشى » .. بهذا التجهيل والتضخيم والتهويل ، الذى تتراءى من خلاله صور الدمار والخسف والتنكيل ، الذى يشمل كل شىء ويغشاه فلايبين !

« فبأى آلاء ربك تتمارى ؟ » ..

فلقد كانت إذن تلك المصارع آلاء لله وأفضالا . ألم يهلك الشر ؟ ألم يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويعى ؟ أليست هذه كلها آلاء . فبأى آلاء ربك تتمارى ! الخطاب لكل أحد . ولكل قلب . ولكل من يتدبر صنع الله فيرى النعمة حتى فى البلوى !

وعلى مصارع الغابرين المكذبين بالنذر – بعد استعراض مظاهر المشيئة وآثارها فى الأنفس والآفاق – يلقى بالإيقاع الأخير قويا عميقا عنيفا . كأنه صيحة الخطر قبيل الطامة الكبرى :

« هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة » . .

هذا الرسول الذى تمارون فى رسالته وفى نذارته . هذا نذير من النذر الأولى التى أعقبها ماأعقبها ! وقد أزفت الآزفة . واقتربت كاسحة جارفة . وهى الطامة والقارعة التى جاء هذا النذير يحذركم إياها أو هو هول العذاب الذى لايعلم إلاالله نوعه وموعده . ولايملك إلا الله كشفه ودفعه : « ليس لها من دون الله كاشفة » . .

وبينما الخطر الداهم قريب . والنذير الناصح يدعوكم إلى النجاة . إذا أنتم سادرون لاهون لاتقدرون الموقف ولا تفيقون .

« أفمن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولاتبكون ؟ وأنتم سامدون ... » . .

وهذا الحديث جد عظيم يلقى على كاهل الناس واجبات ضخمة وفى الوقت ذاته يقودهم إلى النهج الكامل . فمم يعجبون ؟ ومم يضحكون ؟ وهذا الجد الصارم ، وهذه التبعات الكبيرة ، ومابنتظر الناس من حساب على حياتهم فى الأرض . . كله يجعل البكاء أجدر بالموقف الجد ، وماوراءه من الهول والكرب . .

وهنا يرسلها صيحة مدوية ، ويصرخ فى آذانهم وقلوبهم . ويهتف بهم إلى ماينبغى أن يتداركوا به أنفسهم ، وهم على حافة الهاوية :

« فاسجدوا لله واعبدوا » .

وإنها لصيحة مزلزلة مذهلة فى هذا السياق ، وفى هذه الظلال ، وبعد هذا التمهيد الطويل ، الذى ترتعش له القلوب :

ومن ثم سجدوا . . سجدوا وهم مشركون . وهم يمارون فى الوحى والقرآن . وهم يجادلون فى الله والرسول !

سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التى وقعت على قلوبهم والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتلوهذهالسورة عليهم .وفيهم المسلمون والمشركون . ويسجدفيسجد الجميع . مسلمين ومشركين . لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن ؛ ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان . . ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم فى ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون !

بهذا تواترت الروايات . ثم افترقت فى تعليل هذا الحادث الغريب . وما هو فى الحقيقة بالغريب . فهو تأثير هذا القرآن العجيب ووقعه الهائل فى القلوب !

* * *

هذا الحادث الذى تواترت به الروايات . حادث سجود المشركين مع المسلمين . كان يحتاج عندى إلى تعليل . قبل أن تقع لى تجربة شعورية خاصة عللته فى نفسى ، وأوضحت لى سببه الأصيل .

وكنت قد قرأت تلك الروايات المفتراة عما سمي بحديث الغرانيق ،الذى أورده ابن سعد فى طبقاته ، وابن جرير الطبرى فى تاريخه . وبعض المفسرين عند تفسيرهم لقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله مايلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . . . الخ » . . وهى الروايات التى قال فيها ابن كثير ــ جزاه الله خيرا ــ «ولكنها من طرق كلهامرسلة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح » .

وأكثر هذه الروايات تفصيلا وأقلها إغراقا فى الخرافة والافتراء على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ رواية ابن أبى حاتم . قال : حدثنا موسى ابن أبى موسى الكوفى ، حدثنا محمد ابن اسحاق الشيبى ، حدثنا محمد ابن فليح ، عن موسى ابن عقبة ، عن ابن شهاب . قال : أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لوكان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ؛ ولكنه لايذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد اشتد عليه مانالله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ؛ فكان يتمنى هداهم . فلما أنزل الله سورة النجم قال : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؟ » ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلى،وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى .. وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته . . فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة . وذلت بها ألسنتهم . وتباشروا

بها . وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . . فلما بلغ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلا كبيراً فرفع ملء كفه ترابا فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم فى السجود لسجود رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين . ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان فى مسامع المشركين . . فاطمأنت أنفسهم ــ أى المشركون ــ لما ألقى الشيطان فى أمنية رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد قرأها فى السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم . ففشت تلك الكلمة فى الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين: عثمان ابن مظعون وأصحابه . وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، وصلوا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبلغهم سجود الوليد ابن المغيرة على التراب على كفه ، وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة ، فأقبلوا سراعا ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من الفرية . وقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي . . . الخ » . . فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان ، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين ، واشتدوا عليهم » . . انتهى

وهناك روايات أخرى أجرأ على الافتراء تنسب قولة الغرانيق . . تلك . . إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتعلل هذا برغبته ــ حاشاه صلى الله عليه وسلم ــ فى مراضاة قريش ومهادنتها !!!

وقد رفضت منذ الوهلة الأولى تلك الروايات جميعا . . فهى فضلا عن مجافاتها لعصمة النبوة وحفظ الذكر من العبث والتحريف ، فإن سياق السورة ذاته ينفيها نفيا قاطعا . إذ أنه يتصدى لتوهين عقيدة المشركين فى هذه الآلهة وأساطيرهم حولها . فلامجال لإدخال هاتين العبارتين فى سياق السورة بحال . حتى على قول من قال : إن الشيطان ألقى بها فى أسماع المشركين دون المسلمين . فهؤلاء المشركون كانوا عربا يتذوقون لغتهم . وحين يسمعون هاتين العبارتين المقحمتين ويسمعون بعدها : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ... الخ » . ويسمعون بعد ذلك : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن

وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » .. ويسمعون قبله : « وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .. حين يسمعون هذا السياق كله فإنهم لا يسجدون مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — لأن الكلام لا يستقيم . والثناء على آلهتهم وتقرير أن لها شفاعة ترتجى لا يستقيم . وهم لم يكونوا أغبياء كغباء الذين افتروا هذه الروايات ، التى تلقفها منهم المستشرقون مغرضين أو جاهلين !

لغير هذا السبب إذن سجد المشركون . ولغير هذا السبب عاد المهاجرون من الحبشة ثم عادوا إليها بعد حين مع آخرين .

وليس هنا مجال تحقيق سبب عودة المهاجرين ، ثم عودتهم إلى الحبشة مع آخرين ..

فأما أمر السجود فهو الذى نتصدى له فى هذه المناسبة ..

لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود . ويخطر لى احتمال أنه لم يقع ؛ وإنما هى رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو شهرين أو ثلاثة . وهو أمر يحتاج إلى التعليل .

وبينما أنا كذلك وقعت لى تلك التجربة الشعورية الخاصة التى أشرت إليها من قبل ..

كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب ، يتلو سورة النجم . فانقطع بيننا الحديث ، لنستمع وننصت للقرآن الكريم . وكان صوت القارئ مؤثرا وهو يرتل القرآن ترتيلا حسنا .

وشيئا فشيئا عشت معه فيما يتلوه . عشت مع قلب محمد — صلى الله عليه وسلم — فى رحلته إلى الملأ الأعلى . عشت معه وهو يشهد جبريل — عليه السلام — فى صورته الملائكية التى خلقه الله عليها . ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله ! وعشت معه وهو فى رحلته العلوية الطليقة . عند سدرة المنتهى . وجنة المأوى . عشت معه بقدر ما يسعفنى خيالى ، وتحلق بى رؤاى ، وبقدر ما تطيق مشاعرى وأحاسيسى ..

وتابعته فى الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها .. إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة ، التى تتهاوى عند اللمسة الأولى !

ووقفت أمام الكائن البشرى ينشأ من الأرض ، وأمام الأجنة فى بطون الأمهات . وعلم الله يتابعها ويحيط بها .

وارتجف كيانى تحت وقع اللمسات المتتابعة فى المقطع الأخير من السورة. .الغيب المحجوب لايراه إلا الله . والعمل المكتوب لايند ولايغيب عن الحساب والجزاء . والمنتهى إلى الله فى نهاية كل طريق يسلكه العبيد. والحشود الضاحكة والحشود الباكية .وحشود الموتى. وحشود الأحياء. والنطفة تهتدى فى الظلمات إلى طريقها ، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هى ذكر أو أنثى. والنشأة الأخرى . ومصارع الغابرين . والمؤتفكة أهوى فغشاها ماغشى !

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة : « هذا نذير من النذر الأولى. أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » . .

ثم جاءت الصيحة الأخيرة . واهتز كيانى كله أمام التبكيت الرعيب : « أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولاتبكون وأنتم سامدون ؟ » .

فلما سمعت : « فاسجدوا لله واعبدوا » . .كانت الرجفة قد سرت من قلبى حقا إلى أوصالى. واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادى ، لم أملك مقاومته . فظل جسمى كله يختلج ، ولا أتمالك أن أثبته ، ولا أن أكفكف دموعا هاتنة ، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة !

وأدركت فى هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح . وأن تعليله قريب . إنه كامن فى ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن ، ولهذه الإيقاعات المزلزلة فى سياق هذه السورة . ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها . ولكنها فى هذه المرة كان لها هذا الوقع ، وكانت منى هذه الاستجابة . . وذلك سر القرآن . . فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة ؛ وتقع اللمسة التى تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير . فيكون منها ما يكون !

لحظة كهذه مست قلوب الحاضرين يومها جميعا . ومحمد — صلى الله عليه وسلم — يقرأ هذه السورة يقرؤها بكيانه كله . ويعيش فى صورها التى عاشها من قبل بشخصه . وتنصب كل هذه القوة الكامنة فى السورة من خلال صوت محمد — صلى الله عليه وسلم — فى أعصاب السامعين . فيرتجفون ويسمعون : « فاسجدوا لله واعبدوا » ويسجد محمد والمسلمون . . فيسجدون . . .

ولقد يقال: إنك تقيس على لحظة مرت بك ، وتجربة عانيتها أنت . وأنت مسلم . تعتقد بهذا القرآن ، وله فى نفسك تأثير خاص . . وأولئك كانوا مشركين يرفضون الإيمان ويرفضون القرآن !

ولكن هنالك اعتبارين لهما وزنهما فى مواجهة هذا الذى يقال :

الاعتبار الأول : أن الذى كان يقرأ السورة كان هو محمد — صلى الله عليه وسلم — النبى . الذى تلقى هذا القرآن مباشرة من مصدره . وعاشه وعاش به . وأحبه حتى لكان يثقل خطاه. إذا سمع من يرتله داخل داره ، ويقف إلى جانب الباب يسمع له حتى ينتهى ! وفى هذه السورة . بالذات كان يعيش لحظات عاشها فى الملإ الأعلى . وعاشها مع الروح الأمين وهو يراه على صورته. الأولى . . فأما أنا فقد كنت أسمع السورة من قارىء . والفارق ولا شك هائل !

والاعتبار الثانى : أن أولئك المشركين لم تكن قلوبهم ناجية من الرعشة والرجفة ، وهم يستمعون إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — إنما كان العناد المصطنع هو الذى يحول بينهم وبين الإذعان . . والحادثان التاليان شاهد على ما كان يخالج قلوبهم من الارتعاش .

روى ابن عساكر فى ترجمة عتبة ابن أبى لهب ، من طريق محمد ابن اسحاق ، عن عثمان ابن عروة ، ابن الزبير ، عن أبيه ، عن هناد ابن الأسود ، قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزوا إلى الشام ، فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ، ولأوذينه فى ربه (سبحانه وتعالى) . فانطلق حتى أتى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : يامحمد . هو يكفر بالذى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » . . ثم انصرف عنه ، فرجع إلى أبيه ، فقال : يابنى ، ما قلت له ؟ فذكر له ما قاله . فقال : فما قال لك ؟ قال : قال : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك . قال : يابنى والله ما آمن عليك دعاءه ! فسرنا حتى نزلنا أبراه — وهى فى سدة — ونزلنا إلى صومعة راهب . فقال الراهب : يامعشر العرب ، ماأنزلكم هذه البلاد ؟ فإنها يسرح فيها الأسد كما تسرح الغنم ! فقال أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سنى وحقى ؟ وإن هذا الرجل قد دعا على ابنى دعوة والله ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابنى عليها ، ثم افرشوا حولها . ففعلنا . فجاء الأسد فشم وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وثبة فوق المتاع ، فشم وجهه ، ثم هزمه هزمة ففسخ رأسه . فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لاينفلت عن دعوة محمد !

هذا هو الحادث الأول صاحبه أبو لهب . أشد المخاصمين لمحمد — صلى الله عليه وسلم — المناوئين له ، المؤلبين عليه هو وبيته . المدعو عليه فى القرآن هو وبيته : « تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها

حبل من مسد » . . وذلك شعوره الحقيقى تجاه محمد وقول محمد . وتلك ارتجافة قلبه ومفاصله أمام دعوة محمد — صلى الله عليه وسلم — على ابنه .

والحادث الثانى: صاحبه عتبة ابن أبى ربيعة . وقد أرسلته قريش إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — يفاوضه فى الكف عن هذا الذى فرق قريشا وعاب آلهتهم ، على أن يكون له منهم مايريد من مال أورياسة أوزواج . فلما انتهى من عرضه قال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع منى » . قال : أفعل . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمان الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون » . . ثم مضى حتى قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .. عندئذ هب عتبة يمسك بفم النبى — صلى الله عليه وسلم فى ذعر وهو يقول : ناشدتك الرحم أن تكف . . وعاد إلى قريش يقص عليهم الأمر . ويعقب عليه يقول : وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب [١] .

فهذا شعور رجل لم يكن قد أسلم . والارتجاف فيه ظاهر . والتأثر المكبوت أمام العناد والمكابرة ظاهر .

ومثل هؤلاء إذا استمعوا إلى سورة النجم من محمد — صلى الله عليه وسلم — فأقرب مايحتمل أن تصادف قلوبهم لحظة الاستجابة التى لايملكون أنفسهم إزاءها . وأن يؤخذوا بسلطان هذا القرآن فيسجدوا مع الساجدين .. بلاغرانيق ولاغيرها من روايات المفترين !

(١) ملخصة من روايات عدة .

سورة القمر مكية
وآياتها ٥٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ ٱلْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي ٱلنُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو ٱلدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ، يَقُولُ ٱلْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ .

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا: مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ؟ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

« كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ؟ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ؟ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوا: أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ؟ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ *

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ؟ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

« وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ .

« أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ؟ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ؟ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » .

هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعيبة مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر ، بقدر ماهى طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة . وهى مقسمة إلى حلقات متتابعة، كل

حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين ، يأخذ السياق فى ختامها بالحس البشرى فيضغطه ويهزه ويقول له : « فكيف كان عذابى ونذر ؟ » . . ثم يرسله بعد الضغط والهز ويقول له : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » .

ومحتويات السورة الموضوعية واردة فى سور مكية شتى . فهى مشهد من مشاهد القيامة فى المطلع ، ومشهد من هذه المشاهد فى الختام . وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح . وعاد وثمود . وقوم لوط . وفرعون وملئه . و كلها موضوعات تزخر بها السور المكية فى صور شتى . .

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض فى هذه السورة عرضا خاصا ، يحيلها جديدة كل الجدة . فهى تعرض عنيفة عاصفة ، وحاسمة قاصمة ؛ يفيض منها الهول ، ويتناثر حولها الرعب ، ويظللها الدمار والفزع والانبهار !

وأخص مايميزها فى سياق السورة أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبة سريعة لاهثة مكروبة . يشهدها المكذبون ، وكأنما يشهدون أنفسهم فيها ، ويحسون إيقاعات سياطها. فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولا ورعبا .. وهكذا حتى تنتهى الحلقات السبعة فى هذا الجو المفزع الخانق. فيطل المشهد الأخير فى السورة . وإذا هو جو آخر ، ذو ظلال أخرى . وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة . إنه مشهد المتقين : « إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » . . فى وسط ذلك الهول الراجف ، والفزع المزلزل ، والعذاب المهين للمكذبين : « يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » . .

فأين وأين ؟ مشهد من مشهد ؟ ومقام من مقام ؟ وقوم من قوم ؟ ومصير من مصير ؟

* * *

« اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر . فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شىء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون : هذا يوم عسر » . .

مطلع باهر مثير ، على حادث كونى كبير ، وإرهاص بحادث أكبر . لايقاس إليه ذلك الحدث الكونى الكبير :

« اقتربت الساعة وانشق القمر » . .

فياله من إرهاص ! وياله من خبر . ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر .

والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له فى حالة انشقاقه أخبار متواترة . تتفق كلها فى إثبات وقوع الحادث ، وتختلف فى رواية هيئته تفصيلا وإجمالا :

من رواية أنس ابن مالك ـ رضى الله عنه ـ . . قال الإمام أحمد : حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك قال : سأل أهل مكة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية . فانشق القمر بمكة مرتين فقال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » . . وقال البخارى : حدثنى عبد الله ابن عبد الوهاب . حدثنا بشر ابن المفضل ، حدثنا سعيد ابن أبى عروة ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك . أن أهل مكة سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريهم آية . فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . وأخرجه الشيخان من طرق أخرى عن قتادة عن أنس . .

ومن رواية جبير ابن مطعم ـ رضى الله عنه ـ . . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد ابن كثير ، حدثنا سليمان ابن كثير ، عن حصين ابن عبد الرحمان ، عن محمد ابن جبير ابن مطعم ، عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصار فرقتين . فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . . تفرد به أحمد من هذا الوجه . . وأسنده البيهقى فى الدلائل من طريق محمد ابن كثير عن أخيه سليمان ابن كثير ، عن حصين ابن عبد الرحمان . . ورواه ابن جرير والبيهقى من طرق أخرى عن جبير ابن مطعم كذلك .

ومن رواية عبد الله ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ . . قال البخارى : حدثنا يحيى ابن كثير ، حدثنا بكر ، عن جعفر ، عن عراك ابن مالك ، عن عبيد الله ابن عبد الله ابن عتبة ، عن ابن عباس ، قال : انشق القمر فى زمان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . ورواه البخارى أيضا ومسلم من طريق آخر عن عراك بسنده السابق إلى ابن عباس . . وروى ابن جرير من طريق أخرى إلى على ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه . . وروى العوفى عن ابن عباس نحو هذا . . وقال الطبرانى بسند آخر

عن عكرمة عن ابن‌عباس قال: كسف القمر على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا: سحر القمر ، فنزلت : « اقتربت الساعة وانشق القمر — إلى قوله : مستمر » .

ومن رواية عبد الله ابن عمر — رضى الله عنها — : قال الحافظ أبوبكر البيهقى : أخبرنا أبوعبدالله الحافظ ، وأبوبكر أحمدابن الحسن القاضى ، قالا : حدثنا أبو العباس الأصم ،حدثنا العباس ابن محمد الدورى ، حدثنا وهب ابن جرير ، عن شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبدالله ابن عمر فى قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : وقدكان ذلك على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — انشق فلقتين فلقة من دون الجبل وفلقة خلف الجبل . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « اللهم اشهد » . . وهكذا رواه مسلم والترمذى من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد . .

ومن رواية عبدالله ابن مسعود — رضى الله عنه — : قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ،عن أبى معمر ، عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — شقتين حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: « اشهدوا » . وهكذا رواه البخارى ومسلم من حديث سفيان ابن عيينة . وأخرجاه كذلك من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر عبد الله ابن سخبرة ، عن ابن مسعود . وقال البخارى : قال أبو داود الطيالسى : حدثنا أبوعوانة،عن المغيرة ،عن أبى الضحى، عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود ، قال : انشق القمر على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة . قال : فقالوا : انظروا مايأتيكم من السفار ، فإن محمدا لايستطيع أن يسحر الناس كلهم قال : فجاء السفار فقالوا ذلك . . وروى البيهقى من طريق أخرى عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود ، بما يقرب من هذا .

فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث ، وتحديد مكانه فى مكة — باستثناء رواية لم نذكرها عن عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه ، أنه كان فى منى — وتحديد زمانه فى عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — قبل الهجرة . وتحديد هيئته — فى معظم الروايات أنه انشق فلقتين ، وفى رواية واحدة أنه كسف (أى خسف) . . فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة .

وهو حادث واجه به القرآن المشركين فى حينه ؛ ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه ؛ فلا بد أن

يكون قد وقع فعلا بصورة يتعذر معها التكذيب ، ولوعلى سبيل المراء الذى كانوا يمارونه فى الآيات ، لو وجدوا منفذا للتكذيب . وكل ماروى عنهم أنهم قالوا : سحرنا ! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر ، فعرفوا أنه ليس بسحر ؛ فلئن كان قد سحرهم فإنه لايسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه .

بقيت لنا كلمة فى الرواية التى تقول : إن المشركين سألوا النبى — صلى الله عليه وسلم — آية . فانشق القمر . فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآنى مدلوله أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التى جاءت مع الرسل قبله ، لسبب معين: « ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلاأن كذب بها الأولون » (١) . . فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات — أى الخوارق — لما كان من تكذيب الأولين بها .

وفى كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته ، وأنه ليس إلا بشرا رسولا . وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة : « قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله، ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفناللناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثرالناس إلا كفورا . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجرلنا من الأرض ينبوعا أوتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أوتسقط السماء — كما زعمت — علينا كسفا ، أوتأتى بالله والملائكة قبيلا . أويكون لك بيت من زخرف أوترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل : سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » (٢) .

فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية — أى خارقة — يبدو بعيداعن مفهوم النصوص القرآنية ؛ وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشرى بالقرآن وحده ، ومافيه من إعجاز ظاهر ؛ ثم توجيه هذا القلب — عن طريق القرآن — إلى آيات الله القائمة فى الأنفس والآفاق ، وفى أحداث التاريخ سواء . . فأما ماوقع فعلا للرسول — صلى الله عليه وسلم — من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكراما من الله لعبده ، لادليلا لإثبات رسالته . .

(١) سورة الإسراء [٥٩]

(٢) سورة الإسراء [٨٨ — ٩٣]

ومن ثم ثبت الحادث ــ حادث انشقاق القمر ــ بالنص القرآنى وبالروايات المتواترة التى تحددمكان الحادث وزمانه وهيئة . ونتوقف فى تعليله الذى ذكرته بعض الروايات. ونكتفى بإشارة القرآن إليــه مــع الإشارة إلى اقتراب الساعــة . باعتبار هــذه الإشارة لمسة للقلب البشرى ليستيقظ ويستجيب . .

وانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها ، كما يوجهها دائما إلى الآيات الـكونية الأخرى ؛ ويعجب من أمرهم وموقفهم إزاءها ، كما يعجب من مواقفهم تجاه آيات الله الـكونية الأخرى .

إن الخوارق الحسية قد تدهش القلب البشرى فى طفولته ،قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الـكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعهــا الثابت الهادىء . وكل الخوارق التى ظهــرت على أيدى الرسل ــ صلوات الله عليهم ــ قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد فى الـكون ماهو أكبر منها وأضخم ، وإن كان لا يستثير الحس البدائى كما تستثيره تلك الخوارق !

ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة . . فإن القمر فى ذاته آية أكبر ! هذا الـكوكب بحجمه ، ووضعه ، وشكله ، وطبيعته ، ومنازله ، ودورته ، وآثاره فى حياة الأرض ، وقيامه هكذا فى الفضاء بغير عمــد . هذه هى الآية الـكبرى القائمة الدائمة حيال الأبصار وحيال القلوب ، توقع إيقاعها وتلقى ظلالها ، وتقوم أمام الحس شاهدا على القدرة المبدعة التى يصعب إنـكارها إلا عنادا أو مراء !

وقد جاء القرآن ليقف بالقلب البشرى فى مواجهة الـكون كله ؛ ومافيه من آيات الله القائمة الثابتة ؛ ويصله بهــذا الـكون وآيات الله فيه فى كل لحظة ؛ لا مرة عارضة فى زمان محدود ، يشهدها جيل من الناس فى مكان محدود .

إن الـكون كله هو مجال النظر والتأمل فى آيات الله التى لاتنفد ،ولا تذهب،ولا تغيب .وهو بجملته آية. وكل صغيرة فيه وكبيرة آية . والقلب البشرى مدعو فى كل لحظة لمشاهدة الخوارق القائمــة الدائمــة ، والاستماع إلى شهادتها الفاصلة الحــاسمة ؛ والاستمتاع كذلك بعجائب الإبداع الممتعة ، التى يلتقى فيها الجمال بالـكمال ، والتى تستجيش انفعال الدهش والحيرة مع وجدان الإيمان والاقتناع الهادىء العميق .

وفى مطلع هــذه السورة تجىء تلك الإشارة إلى اقتراب الساعة وانشقاق القمر إيقاعا يهز

القلب البشرى هزا . وهو يتوقع الساعة التى اقتربت ، ويتأمل الآية التى وقعت ، ويتصور أحداث الساعة فى ظل هذا الحدث الكونى الذى رآه المخاطبون بهذا الإيقاع المثير .

وفى موضوع اقتراب الساعة روى الإمام أحمد . قال : حدثنا حسين ، حدثنا محمد ابن مطوف ، عن أبى حازم ، عن سهل ابن سعد ، قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ يقول : « بعث أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى (١)

ومع اقتراب الموعد المرهوب ، ووقوع الحادث الكونى المثير ، وقيام الآيات التى يرونها فى صور شتى .. فإن تلك القلوب كانت تلج فى العناد ، وتصر على الضلال ، ولا تتأثر بالوعيد كما لا تتأثر بإيقاع الآيات الكثيرة الكافية للعظة والكف عن التكذيب :

« وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر » .

ولقد أعرضوا وقالوا : سحرنا ، وهم يرون آية الله فى انشقاق القمر . وكان هذا رأيهم مع آية القرآن . فقالوا : سحر يؤثر. فهذا قولهم كلما رأوا آية. ولما كانت الآيات متوالية متواصلة ، فقد قالوا : إنه سحر مستمر لاينقطع ، معرضين عن تدبر طبيعة الآيات وحقيقتها ، معرضين كذلك عن دلالتها وشهادتها ، وكذبوا بالآيات وبشهادتها . كذبوا اتباعا لأهوائهم لااستنادا إلى حجة ، ولاارتكانا إلى دليل ، ولاتدبرا للحق الثابت المستقر فى كل ماحولهم فى هذا الوجود . .

« وكل أمر مستقر » . . فكل شىء فى موضعه فى هذا الوجود الكبير . وكل أمر فى مكانه الثابت الذى لايتزعزع ولايضطرب . فأمر هذا الكون يقوم على الثبات والاستقرار ، لاعلى الهوى المتقلب ، والمزاج المتغير ؟ أوالمصادفة العابرة والارتجال العارض . . كل شىء فى موضعه وفى زمانه ، وكل أمر فى مكانه وفى إبانه . والاستقرار يحكم كل شىء من حولهم ،ويتجلى فى كل شىء : فى دورة الأفلاك ، وفى سنن الحياة . وفى أطوار النبات والحيوان . وفى الظواهر الثابتة للأشياء والمواد . لابل فى انتظام وظائف أجسامهم وأعضائهم التى لاسلطان لهم عليها . والتى لاتخضع للأهواء ! وبينما هذا الاستقرار يحيط بهم ويسيطر على كل شىء من حولهم ، ويتجلى فى كل أمر من بين أيديهم ومن خلفهم.. إذا هم وحدهم مضطربون تتجاذبهم الأهواء !

---

(١) وأخرجه الشيخان من حديث أبى حازم سلمة ابن دينار .

« ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر » . . أنباء الآيات الكونية التي صرّفها الله لهم في هـذا القرآن ؛ وأنباء المكذبين قبلهم ومصارعهم ، وأنباء الآخرة التي صورها القرآن لهم . . وكان في هذا كله زاجر ورادع لمن يزدجر ويرتدع . وكان فيه من حكمة الله مايبلغ القلوب ويوجهها إلى تدبيره الحكيم . ولكن القلوب المطموسة لاتتفتح لرؤية الآيات ، والانتفاع بالأنباء ، واليقظة على صوت النذير بعد النذير : « حكمة بالغة فما تغني النذر » . إنما هو الإيمان هبة الله للقلب المتهيء للإيمان ، المستحق لهذا الإنعام !

وعند هذا الحد من تصوير إعراضهم وإصرارهم ، وعدم انتفاعهم بالأنباء ، وقلة جدوى النذر مع هؤلاء . يتوجه الخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للإعراض عنهم وتركهم يلاقون اليوم الذي لايحفلون النذير باقترابه ، وهم يرون انشقاق القمر بين يدي مجيئه :

« فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون : هذا يوم عسر » . .

وهو مشهدمن مشاهد ذلك اليوم ، يناسب هوله وشدته ظلال السورة كلها ؛ ويتناسق مع الإرهاص باقتراب الساعة ، ومع الإنباء بانشقاق القمر ، ومع الإيقـاع الموسيقي في السورة كذلك !

« وهو متقارب سريع . وهو مع سرعته شاخص متحرك ، مكتمل السمات والحركات : هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول ، وهي تسرع في سيرها نحوالداعي ، الذي يدعوها لأمرغريب نكير شديد لاتعرفه ولا تطمئن إليه . . وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والإسراع يقول الكافرون : « هذا يوم عسر » . . وهي قولة المكروب المجهود ، الذي يخرج ليواجه الأمر الصعب الرعيب ! » [1]

فهذا هو اليوم الذي اقترب ، وهم عنه معرضون ، وبه يكذبون . فتول عنهم يوم يجيء ، ودعهم لمصيرهم فيه وهو هذا المصير الرعيب المخيف !

* * *

وبعد هذا الإيقاع العنيف في مطلع السورة ؛ والمشهد المكروب الذي يشمل المكذبين في

---

(١) مأخوذ بتصرف خفيف عن كتاب « مشاهد القيامة في القرآن » .

يوم القيامة . . يأخذ فى عرض مشاهد التنكيل والتعذيب الذى أصاب بالفعل أجيال المكذبين قبلهم ، وعرض مصارع الأمم التى سلكت من قبل مسلكهم ، بادئا بقوم نوح :

« كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا ، وقالوا : مجنون ، وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب ، فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ فكيف كان عذابى ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » . .

« كذبت قبلهم قوم نوح » . . بالرسالة وبالآيات « فكذبوا عبدنا » .. نوحا « وقالوا : مجنون » . . كما قالت : قريش ظالمة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - وهددوه بالرجم ، وآذوه بالسخرية ، وطالبوه أن يكف عنهم ونهروه بعنف : « وازدجر » . . بدلا من أن ينزجروا هم ويرعووا !

عندئذ عاد نوح إلى ربه الذى أرسله وكلفه مهمة التبليغ . عاد لينهى إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه ، وما انتهى إليه جهده وعمله ، وما انتهت إليه طاقته ووسعه . ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم يبذلها ، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول :

« فدعا ربه : أنى مغلوب . فانتصر » ..

انتهت طاقتى . انتهى جهدى . انتهت قوتى . وغلبت على أمرى . « أنى مغلوب فانتصر » .. انتصر أنت يا ربى . انتصر لدعوتك . انتصر لحقك . انتصر لمنهجك . انتصر أنت فالأمر أمرك ، والدعوة دعوتك . وقد انتهى دورى !

وما تكاد هذه الكلمة تقال ؟ وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار ، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة .. فتدور دورتها المدوية المجلجلة :

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » ..

وهي حركة كونية ضخمة غامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة . تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة : « ففتحنا » فيحس القارىء يد الجبار تفتح « أبواب السماء » .. بهذا اللفظ وبهذا الجمع . « بماء منهمر » . . غزير متوال . وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها : « وفجرنا الأرض عيونا » .. وهو تعبير يرسم مشهد التفجر وكأنه ينبثق من الأرض كلها ، وكأنما الأرض كلها قد استحالت عيونا .

والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض .. « على أمر قد قدر ».. التقيا على أمر مقدر ، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر . طائعان للأمر ، محققان للقدر .

حتى إذا صار طوفانا يطم ويعم ، ويغمر وجه الأرض ، ويطوى الدنس الذى يغشى هذا الوجه . وقد يئس الرسول من تطهيره ، وغلب على أمره فى علاجه. امتدت اليد القوية الرحيمة إلى الرسول الذى دعا دعوته، فتحرك لها الكون كله . امتدت له هذه اليد بالنجاة وبالتكريم:

« وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر » . .

وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها . فهى ذات ألواح ودسر [1] . توصف ولا تذكر لفخامتها وقيمتها . وهى تجرى فى رعاية الله بملاحظة أعينه. « جزاء لمن كان كفر » . وجحد وازدجر . وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء ، وبالتكريم على الاستهزاء . ويصور مدى القوة التى يملك رصيدها من يُغاب فى سبيل الله . ومن يبذل طاقته ، ثم يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر ! .. إن قوى الكون الهائلة كلها فى خدمته وفى نصرته. والله من ورائها بجبروته وقدرته .

وعلى مشهد الانتصار الهائل الكامل ؛ والمحق الحاسم الشامل، يتوجه إلى القلوب التى شهدت المشهد كأنها تراه . يتوجه إليها بلمسة التعقيب ، لعلها تتأثر وتستجيب :

« ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ » . .

هذه الواقعة بملابساتها المعروفة . تركناها آية للأجيال . « فهل من مدكر ؟ » يتذكر ويعتبر ؟

ثم سؤال لإيقاظ القلوب إلى هول العذاب وصدق النذر :

« فكيف كان عذابى ونذر ؟ » . .

ولقد كان كما صوره القرآن . كان عذابا مدمرا جبارا . وكان نذيرا صادقا بهذا العذاب .

وهذا هو القرآن حاضرا ، سهل التناول ، ميسر الإدراك ، فيه جاذبية ليقرأ ويتدبر . فيه جاذبية الصدق والبساطة ، وموافقة الفطرة ، واستجاشة الطبع ، لا تنفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد . وكلما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد . وكلما صحبته النفس زادت له ألفة وبه أنسا:

« ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » . .

---

(١) الدسر : المسامير .

وهذا هو التعقيب الذى يتكرر ، بعد كل مشهد يصور . . ويقف السياق عنده بالقلب البشرى يدعوه دعوة هادئة إلى التذكر والتدبر ، بعد أن يعرض عليه حلقة من العذاب الأليم الذى حل بالمكذبين .

***

« كذبت عاد ، فكيف كان عذابى ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ،تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟» ..

وهذه هى الحلقة الثانية ، أو المشهد الثانى من مشاهد التعذيب العنيف ؛ والمصرع الذى يقف عليه بعد وقفته على مصرع قوم نوح . أول المهلكين .

يبدؤه بالإخبار عن تكذيب عاد . وقبل أن يكمل الآية يسأل سؤال التعجيب والتهويل : « فكيف كان عذابى ونذر ؟ » . . كيف كان بعد تكذيب عاد ؟ ثم يجيب . .

كان كما يصفه ذلك الوصف الخاطف الرعيب :

« إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » . . والريح الصرصر : الباردة العنيفة . وجرس اللفظ يصور نوع الريح . والنحس : الشؤم . وأى نحس يصيب قوما أشد مما أصاب عاد . والريح تنزعهم وتجذبهم وتحطمهم فتدعهم كأنهم أعجاز نخل مهشمة مقلوعة من قعورها ؟ !

والمشهد مفزع مخيف،وعاصف عنيف . والريح التى أرسلت على عاد « هى من جند الله » وهى قوة من قوى هذا الكون ، من خلق الله ، تسير وفق الناموس الكونى الذى اختاره؛ وهو يسلطها على من يشاء ، بينما هى ماضية فى طريقها مع ذلك الناموس ، بلاتعارض بين خط سيرها الكونى ، وأدائها لما تؤمر به وفق مشيئة الله . صاحب الأمر وصاحب الناموس :

« فكيف كان عذابى ونذر ؟ » ..

يكررها بعد عرض المشهد . والمشهد هو الجواب !

ثم يختم الحلقة بالتعقيب المكرر فى السورة وفق نسقها الخاص :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » ..

***

ثم يمضى إلى المشهد التالى فى السياق وفى التاريخ :

« كذبت ثمود بالنذر . فقالوا : أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ، كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابى ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » ..

وثمود كانت القبيلة التى خلفت عاداً فى القوة والتمكين فى جزيرة العرب . كانت عاد فى الجنوب وكانت ثمود فى الشمال . وكذبت ثمود بالنذر كما كذبت عاد ، غير معتبرة بمصرعها المشهور المعلوم فى أنحاء الجزيرة .

« فقالوا : أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر » ..

وهى الشبهة المكرورة التى تحيك فى صدور المكذبين جيلا بعد جيل : « أألقى الذكر عليه من بيننا » ؟ كما أنها هى الكبرياء الجوفاء التى لا تنظر إلى حقيقة الدعوة ، إنما تنظر إلى شخص الداعية : « أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ » !

وماذا فى أن يختار الله واحدا من عباده .. والله أعلم حيث يجعل رسالته .. فيلقى عليه الذكر — أى الوحى وما يحمله من توجيهات للتذكر والتدبر — ماذا فى هذا الاختيار لعبد من عباده يعلم منه تهيؤه واستعداده . وهو خالق الخلق . وهو منزل الذكر ؟ إنها شبهة واهية لا تقوم إلا فى النفوس المنحرفة . النفوس التى لا تريد أن تنظر فى الدعوة لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق ؛ ولكن إلى الداعية فتستكبر عن اتباع فرد من البشر ، مخافة أن يكون فى اتباعها له إيثار له وتعظيم . وهى تستكبر عن الإذعان والتسليم .

ومن ثم يقولون لأنفسهم : « أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر » .. أى لو وقع منا هذا الأمر المستنكر ! وأعجب شىء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى ! وأن يحسبوا أنفسهم فى سعر — لا فى سعير واحد — إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان !

ومن ثم يتهمون رسولهم الذى اختاره الله ليقودهم فى طريق الحق والقصد . يتهمونه بالكذب والطمع : « بل هو كذاب أشر » . . كذاب لم يلق عليه الذكر . أشر : شديد الطمع فى اختصاص نفسه بالمكانة ! وهو الاتهام الذى يواجه به كل داعية . اتهامه بأنه يتخذ الدعوة

ستارا لتحقيق مآرب ومصالح . وهى دعوى المطموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس ومحركات القلوب .

وبينما يجرى السياق على أسلوب الحكاية لقصة غبرت فى التاريخ . . يلتفت فجأة وكأنما الأمر حاضر . والأحداث جارية . فيتحدث عما سيكون . ويهدد بهذا الذى سيكون :

« سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » !

وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصص . وهى طريقة تنفخ روح الحياة الواقعية فى القصة ، وتحيلها من حكاية تحكى ، إلى واقعة تعرض على الأنظار ، يترقب النظارة أحداثها الآن ، ويرتقبونها فى مقبل الزمان !

« سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » . . وسيكشف لهم الغد عن الحقيقة . ولن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة . فستكشف عن البلاء المدمر للكذاب الأشر !

« إنا مرسلو الناقة فتنة لهم . فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم . كل شرب محتضر » . .

ويقف القارىء يترقب ماسيقع ، عندما يرسل الله الناقة فتنة لهم ، وامتحانا مميزا لحقيقتهم . ويقف الرسول — رسولهم عليه السلام — مرتقبا ما سيقع ، مؤتمرا بأمر ربه فى الاصطبار عليهم حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان . ومعه التعليمات . . أن الماء فى القبيلة قسمة بينهم وبين الناقة — ولا بد أنها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة — فيوم لها ويوم لهم — تحضر يومها ويحضرون يومهم . وتنال شربها وينالون شربهم .

ثم يعود السياق إلى أسلوب الحكاية . فيقص ما كان بعد ذلك منهم :

« فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر » . .

وصاحبهم هو أحد الرهط المفسدين فى المدينة ، الذين قال عنهم فى سورة النمل : « وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » . . وهو الذى قال عنه فى سورة الشمس : « إذ انبعث أشقاها » . .

وقيل : إنه تعاطى الخمر فسكر ليصير جريئا على الفعلة التى هو مقدم عليها . وهى عقر الناقة التى أرسلها الله آية لهم ؛ وحذرهم رسولهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم . . « فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر » وتمت الفتنة ووقع البلاء .

« فكيف كان عذابي ونذر ؟ » ..

وهو سؤال التعجيب والتهويل . قبل ذكر ماحل من العذاب بعد النذير :

« إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » ..

ولا يفصل القرآن هذه الصيحة . وإن كانت فى موضع آخر فى سورة «فصلت» توصف بأنها صاعقة : « فإن تولوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . . وقد تكون كلمة صاعقة وصفا للصيحة . فهى صيحة صاعقة . وقد تكون تعبيرا عن حقيقتها . فتكون الصيحة والصاعقة شيئا واحدا . وقد تكون الصيحة هى صوت الصاعقة . أو تكون الصاعقة أثرا من آثار الصيحة التى لا ندرى من صاحها .

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة ، ففعلت بهم مافعلت ، مما جعلهم « كهشيم المحتظر » . . والمحتظر صانع الحظيرة . وهو يصنعها من أعواد جافة . فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيما . أو أن المحتظر يجمع لماشيته هشيما تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف . وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الواحدة !

وهو مشهد مفجع مفزع . يعرض ردا على التعالى والتكبر . فإذا المتعالون المتكبرون هشيم . وهشيم مهين . كهشيم المحتظر !

وأمام هذا المشهد العنيف المخيف ، يرد قلوبهم إلى القرآن ليتذكروا ويتدبروا . وهو ميسر للتذكر والتدبر :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر . فهل من مدكر ؟ » ..

ويسدل الستار على الهشيم المهين . وفى العين منه مشهد . وفى القلب منه أثر . والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر ...

***

ثم يرفع الستار عن حلقة جديدة تالية — بعد ذلك — فى التاريخ ، فى محيط الجزيرة العربية كذلك :

« كذبت قوم لوط بالنذر . إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا . كذلك نجزى من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » ..

وقصة قوم لوط وردت مفصلة فى مواضع أخرى . والمقصود بعرضها هنا ليس هو تفصيلاتها . إنما هى العبرة من عاقبة التكذيب ، والأخذ الأليم الشديد . ومن ثم تبدأ بذكر ماوقع منهم من تكذيب بالنذر : « كذبت قوم لوط بالنذر » . . وعلى إثر هذه الإشارة يصف ما نزل بهم من النكال :

« إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر » . .

والحاصب : الريح تحمل الحجارة. وفى مواضع أخرى ورد أنه أرسل إليهم حجارة من طين. ولفظة الحاصب ذات جرس كأنه وقع الحجارة ، وفيه شدة وعنف تناسب جو المشهد . ولم ينج إلا آل لوط — إلا امرأته — نعمة من عند الله جزاء إيمانهم وشكرهم.. كذلك نجزى من شكر ». فننجيه وننعم عليه فى وسط المهالك والمخاوف .

والآن وقد عرض القصة من طرفيها : طرف التكذيب وطرف الأخذ الشديد. فإنه يعود لشىء من التفصيل فيما وقع بين الطرفين .. وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصة حين يراد إبراز إيحاءات معينة من إيرادها فى هذا النسق [1] . هذه التفصيلات هى :

« ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » . .

وطالما أنذر لوط قومه عاقبة المنكر الشاذ الذى كانوا يأتونه ، فتماروا بالنذر ، وشكوا فيها وارتابوا ، وتبادلوا الشك والارتياب فيما بينهم وتداولوه ، وجادلوا نبيهم فيه . وبلغ منهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه — من الملائكة — وقد حسبوهم غلمانا صباحا فهاج سعارهم الشاذ الملوث القذر ! وساوروا لوطا يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه ، غير محتشمين ولا مستحيين ، ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذى حذرهم وأنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض .

عندئذ تدخلت يد القدرة ، وتحرك الملائكة لأداء ما كلفوه وجاءوا من أجله : « فطمسنا أعينهم » فلم يعودوا يرون شيئا ولا أحدا ؛ ولم يعودوا يقدرون على مساورة لوط ولا الإمساك بضيفه ! والإشارة إلى طمس أعينهم لا ترد إلا فى هذا الموضع بهذا الوضوح . ففى موضع آخر

---

(١) يراجع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

ورد : « قالوا : يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك » . . فزاد هنا ذكر الحالة التى صارت عنعهم من أن يصلوا إليه . وهى انطماس العيون !

وبينما السياق يجرى مجرى الحكاية ، إذا به حاضر مشهود ، وإذا الخطاب يوجه إلى المعذبين : « فذوقوا عذابى ونذر » . . فهذا هو العذاب الذى حذرتم منه ، وهذه هى النذر التى تماريتم فيها !

وكان طمس العيون فى المساء .. فى انتظار الصباح الذى قدره الله لأخذهم جميعا :

« ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » . .

وهو ذلك العذاب الذى عجل بذكره فى السياق . وهو الحاصب الذى طهر الأرض من تلك اللوثة ومن ذلك الفساد .

ومرة أخرى تتغير طريقة العرض ، ويستحضر المشهد كأنه اللحظة واقع . وينادى المعذبون وهم يعانون العذاب :

« فذوقوا عذابى ونذر » !!!

ثم يجىء التعقيب المألوف ، عقب المشهد العنيف :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ؟

***

وتختم هذه الحلقات بحلقة خارج الجزيرة ، ومصرع من المصارع المشهورة المذكورة . فى إشارة سريعة خاطفة :

« ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » . .

وهكذا تختصر قصة فرعون وملئه فى طرفيها : مجىء النذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات التى جاءهم بها رسولهم . وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر . والإشارة إلى العزة والاقتدار تلقى ظلال الشدة فى الأخذ ؛ وفيها تعريض بعزة فرعون واقتداره على البغى والظلم . فقد ضاعت العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار الموهوم . وأخذه الله — هو وآله — أخذ عزيز حقا مقتدر صدقا. أخذهم أخذا شديدا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وغشم وبطش وجبروت .

وعلى هذه الحلقة الأخيرة على مصرع فرعون الجبار . يسدل الستار . .

***

والآن . وقد أسدل الستار على آخر مشهد من مشاهد العذاب والنكال . والمكذبون يشهدون ؛ ويتلقى حسهم إيقاع هذه المشاهد .. الآن والمصارع المتتالية حاضرة فى خيالهم ،ضاغطة على حسهم . . الآن يتوجه إليهم بالخطاب ؛ يحذرهم مصرعا كهذه المصارع . وينذرهم ماهو أدهى وأفظع :

« أ كفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة فى الزبر ؟ أم يقولون : نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . إن المجرمين فى ضلال وسعر . يوم يسحبون فى النار على وجوههم : ذوقوا مس سقر . إنا كل شىء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر . وكل شىء فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر » . .

إنه الإنذار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ وإسقاط كل شبهة وكل شك فى صدق هـذا الإنذار وسد كل ثغرة وكل طمع فى الهرب والفكاك؛أو المغالطة فى الحساب والفرار من الجزاء!

تلك كانت مصارع المكذبين . فما يمنعكم أنتم من مثل ذلك المصير ؟ « أ كفاركم خير من أولئكم ؟ ».. وما ميزة كفاركم على أولئكم ؟« أم لكم براءة فى الزبر » .. تشهد بها الصحائف المنزلة ، فتعفوا إذن من جرائر الكفر والتكذيب ؟ لا هذه ولا تلك. فلستم خيرا من أولئكم، وليست لكم براءة فى الصحائف المنزلة ، وليس هنالك إلا لقاء المصير الذى لقيه الكفار من قبلكم فى الصورة التى يقدرها الله لكم .

ثم يلتفت عن خطابهم إلى خطاب عام ، يعجب فيه من أمرهم :

« أم يقولون : نحن جميع منتصر » .

وذلك حين يرون جمعهم فتعجبهم قوتهم ، ويغترون بتجمعهم ، فيقولون : إنا منتصرون لاهازم لنا ولا غالب ؟

هنا يعلنها عليهم مدوية قاضية حاسمة :

« سيهزم الجمع ويولون الدبر » . .

فلا يعصمهم تجمعهم ، ولا تنصرهم قوتهم . والذى يعلنها عليهم هو القهار الجبار . . ولقد كان ذلك . كما لا بد أن يكون !

قال البخارى بإسناده إلى ابن عباس ـ : أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال وهو فى قبة

لله يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبدا » . فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده ، وقال : حسبك يارسول الله ألححت على ربك ! فخرج وهو يثب فى الدرع ، وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر . . . » .

وفى رواية لابن أبى حاتم بإسناده إلى عكرمة ، قال : لما نزلت « سيهزم الجمع ويولون الدبر » قال عمر : أى جمع يهزم ؟ أى أى جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يثب فى الدرع ، وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . فعرفت تأويلها يومئذ !

وكانت هذه هزيمة الدنيا . ولكنها ليست هى الأخيرة . وليست هى الأشد والأدهى ؛ فهو يضرب عن ذكرها ليذكر الأخرى :

« بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » . .

أدهى وأمر من كل عذاب رأوه أو يرونه فى هذه الأرض . وأدهى وأمر من كل مشهد رأوه مرسوما فيما مر . من الطوفان ، إلى الصرصر . إلى الصاعقة . إلى الحاصب . إلى أخذ فرعون وآله أخذ عزيز مقتدر !

ثم يفصل كيف هى أدهى وأمر . يفصل هذا فى مشهد عنيف من مشاهد القيامة :

« إن المجرمين فى ضلال وسعر . يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » . .

فى ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفى سعر تكوى الجلود والأبدان . . فى مقابل ما كانوا يقولون هم وأمثالهم من قبل : « أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر » . ليعرفوا أين يكون الضلال وأين تكون السعر !

وهم يسحبون فى النار على وجوههم فى عنف وتحقير ، فى مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار . وهم يزادون عذابا بالإيلام النفسى ، الذى كأنما يشهد اللحظة حاضرا معروضا على الأسماع والأنظار : « ذوقوا مس سقر » !

* * *

وفى ظل هذا المشهد المروع المزلزل يتجه بالبيان إلى الناس كافة ، وإلى القوم خاصة . ليقر فى قلوبهم حقيقة قدر الله وحكمته وتدبيره . .

إن ذلك الأخذ فى الدنيا ، وهذا العذاب فى الآخرة . وما كان قبلها من رسالات ونذر ، ومن قرآن وزبر . وما حول ذلك كله من خلق ووجود وتصريف لهذا الوجود . .

إن ذلك كله ، وكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصرفة بقصد ، مدبرة بحكمة . لا شيء جزاف . لا شيء عبث . لا شيء مصادفة . لا شيء ارتجال :

« إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

كل شيء .. كل صغير وكل كبير . كل ناطق وكل صامت . كل متحرك وكل ساكن . كل ماض وكل حاضر . كل معلوم وكل مجهول . كل شيء .. خلقناه بقدر . .

قدر يحدد حقيقته . ويحدد صفته . ويحدد مقداره . ويحدد زمانه . ويحدد مكانه . ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء . وتأثيره فى كيان هذا الوجود .

وإن هذا النص القرآنى القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصداقها هذا الوجود كله . حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود ، ويتجاوب معه ، ويتلقى عنه ، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقا دقيقا . كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق ، الذى ينطبع ظله فى القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود .

ثم يبلغ البحث والرؤية والتجربة من إدراك هذه الحقيقة القدر الذى تهيئه هذه الوسائل ، ويطيقه العقل البشرى ، ويملك معرفته عن هذا الطريق . ووراء هذا القدر يبقى دائما ما هو أعظم وأكمل ، تدركه الفطرة وينطبع فيها بتأثير الإيقاع الكونى المتناسق فيها ، وهى ذاتها بعض هذا الكون المتناسق المخلوق كل شيء فيه بقدر .

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة ، فيما يملك أن يدركه منها بوسائله المهيأة له .. وصل فى إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروها بعد ؛ لأن التناسق يقتضى وجودها فى المواضع التى حددوها . فوجودها فى هذه المواقع هو الذى يفسر ظواهر معينة فى حركة الكواكب التى رصدوها .. ثم يتحقق هذا الذى فرضوه . ويدل تحقيقه على الدقة المتناهية فى توزيع هذه الأجرام ، فى هذا الفضاء الهائل ، بهذه النسب المقدرة ، التى لا يتناولها خلل أو اضطراب !

ووصل فى إدراك التناسق فى وضع هذه الأرض التى نعيش عليها ، لتكون صالحة لنوع الحياة التى قدر الله أن تكون فيها إلى حد أن افتراض أى اختلال فى أية نسبة من نسبها يودى

بهذه الحياة كلها ، أو لا يسمح أصلا بقيامها . فحجم هذه الأرض ، وكتلتها ، وبعدها عن الشمس . وكتلة هذه الشمس ، ودرجة حرارتها . وميل الأرض على محورها بهذا القدر ، وسرعتها فى دورتها حول نفسها وحول الشمس . وبعد القمر عن الأرض . وحجمه وكتلته . وتوزيع الماء واليابس فى هذه الأرض ... إلى آلاف من هذه النسب المقدرة تقديرا ، لو وقع الاختلال فى أى منها لتبدل كل شىء ؛ ولكانت هى النهاية المقدرة لعمر هذه الحياة على هذه الأرض !

ووصل فى إدراك التناسق بين عدد كبير من الضوابط التى تضبط الحياة ؛ وتنسق بين الأحياء والظروف المحيطة بها ؛ وبين بعضها وبعض . . إلى حد يعطى فكرة عن تلك الحقيقة العميقة الكبيرة التى تشير إليها الآية . فالنسبة بين عوامل الحياة والبقاء وعوامل الموت والفناء فى البيئة وفى طبيعة الأحياء محفوظة دائما بالقدر الذى يسمح بنشأة الحياة وبقائها وامتدادها . وفى الوقت ذاته يحد من انتشارها إلى الحد الذى لا تكفى الظروف المهيأة للأحياء ، فى وقت ما ، لإعالتهم وإعاشتهم !

ولعله من المفيد أن نشير إشارة سريعة إلى شىء من هذا التوازن فى علاقات بعض الأحياء ببعض . إذ كنا قد أشرنا بشىء من التفصيل فى سور أخرى إلى التناسق فى بناء الكون ، وفى ظروف الأرض [1] ..

« إن الجوارح التى تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد ، لأنها قليلة البيض ، قليلة التفريخ ، فضلا على أنها لا تعيش إلا فى مواطن خاصة محدودة . وهى فى مقابل هذا طويلة الأعمار . ولو كانت مع عمرها الطويل ، كثيرة الفراخ مستطيعة الحياة فى كل موطن ، لقضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها وكثرة تفريخها . أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بنى الإنسان ، وللقيام بأدوارها الأخرى ، ووظائفها الكثيرة فى هذه الأرض !

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مِقلاتٌ نَزور

وذلك للحكمة التى قدرها الله كما رأينا ، كى تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبغاث !

والذبابة تبيض ملايين البويضات . ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين . ولو كانت تعيش بضعة أعوام ، تبيض فيها بهذه النسبة لغطى الذباب وجه الأرض بنتاجه ؛ ولغدت حياة كثير من الأجناس

(١) يراجع تفسير سورة الفرقان .

ـ وأولها الإنسان ـ مستحيلة على وجه هذه الأرض. ولكن عجلة التوازن التي لا تختل ، في يد القدرة التي تدبر هذا الكون ، وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذي نراه !

والميكروبات ـ وهي أكثر الأحياء عددا ، وأسرعها تكاثرا ، وأشدها فتكا ـ هي كذلك أضعف الأحياء مقاومة وأقصرها عمرا . تموت بملايين الملايين من البرد ، ومن الحر ، ومن الضوء ، ومن أحماض المعدات ، ومن أمصال الدم ، ومن عوامل أخرى كثيرة . ولا تتغلب إلا على عدد محدود من الحيوان والإنسان . ولو كانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمرت الحياة والأحياء !

وكل حي من الأحياء مزود بسلاح يتقي به هجمات أعدائه ويغالب به خطر الفناء . وتختلف هذه الأسلحة وتتنوع . فكثرة العدد سلاح . وقوة البطش سلاح. وبينهما ألوان وأنواع ..

الحيات الصغيرة مزودة بالسم أو بالسرعة للهرب من أعدائها . والثعابين الكبيرة مزودة بقوة العضل ، ومن ثم يندر فيها السام !

والخنفساء ـ وهي قليلة الحيلة ـ مزودة بمادة كاوية ذات رائحة كريهة ، تصبها على كل من يلمسها ، وقاية من الأعداء !

والظباء مزودة بسرعة الجري والقفز ، والأسود مزودة بقوة البأس والافتراس !

وهكذا كل حي من الأحياء الصغار والكبار على السواء .

وكل حي مزود كذلك بالخصائص والوسائل التي يحصل بها على طعامه ، والتي ينتفع معها بهذا اللون من الطعام . . الإنسان والحيوان والطير وأدنأ أنواع الأحياء سواء . .

البويضة بعد تلقيحها بالحيوان المنوي تلصق بالرحم . وهي مزودة بخاصية أكالة ، تمزق جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم المناسب لامتصاصها ونموها !. والحبل السري الذي يربط الجنين بأمه ليتغذى منها حتى يتم وضعه ، روعي في تكوينه ما يحقق الغرض الذي تكون من أجله ، دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه ، أو قصر قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه بما قد يؤذيه » (١) .

« والثدي يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلا أبيض مائلا إلى الاصفرار. ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كماوية ذائبة تقي الطفل من عدوى الأمراض . وفي اليوم

---

(١) من كتاب : الله والعلم والحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٤٦ـ٤٧ .

التالى للميلاد يبدأ اللبن فى التكوين . ومن تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذى يفرزه الثدى يوما بعد يوم ، حتى يصل إلى حوالى لتر ونصف فى اليوم بعد سنة ، بينما لا تزيد كميته فى الأيام الأولى على بضع أوقيات . ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التى تزيد على حسب زيادة الطفل ؛ بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكوّناته ، وتتركز مواده ، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات والسكريات فى أول الأمـر ، ثم تتركز مكوناته فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعـد أخرى ، بـل يوما بعد يوم بمـا يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو » (١)

وتتبع الأجهزة المختلفة فى تكوين الإنسان ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، ودور كل منها فى المحافظة على حياته وصحته . . يكشف عن العجب العجاب فى دقة التقدير وكمال التدبير . ويرينا يد الله وهى تدبر أمر كل فرد . بل كل عضو . بل كل خلية من خلاياه . وعين الله عليه تـكلؤه وترعاه .ولن نستطيع هنا أن نفصل هذه العجائب فنـكتفى باشارة سريعة إلى التقدير الدقيق فى جهاز واحد من هذه الأجهزة . جهاز الغدد الصم « تلك المعامل الـكيماوية الصغيرة التى تمـد الجسم بالتركيبات الـكيماوية الضرورية ، والتى يبلغ من قوتها أن جزءا من ألف بليون جزء منها تحدث آثارا خطيرة فى جسم الإنسان . وهى مرتبة بحيث أن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى . وكل ما كان يعرف عن هـذه الإفرازات أنها معقدة التركيب تعقيدا مدهشا ، وأن أى اختلال فى إفرازها يسبب تلفا عاما فى الجسم ، يبلغ حد الخطورة . إذا دام هـذا الاختلال وقتا قصيرا » (٢) .

أما الحيوان فتختلف أجهزته باختلاف أنواعه وبيئاته وملابسات حياته . .

« زودت أفواه الآساد والنمور والذئاب والضباع ، وكل الحيوانات الـكاسرة التى تعيش فى الفلاة ، ولا غـذاء لها إلا ماتفترسه من كائنات لابد من مهاجمتها ، والتغلب عليها ، بأنياب قاطعة ، وأسنان حادة ، وأضراس صلبة . ولما كانت فى هجومها لابد أن تستعمل عضلاتها ، فلأرجلها عضلات قوية ، سلحت بأظافر ومخالب حادة ، وحوت معدتها الأحماض والأنزيمات الهاضمة للحوم والعظام » (٣) .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧ ــ ٤٨

(٢) المصدر السابق ص ٥١ ــ ٥٢

(٣) المصدر السابق ص ٧١ ــ ٧٢

فأما الحيوانات المجترة المستأنسة التي تعيش على المراعى ، فهي تختلف فيما زودت به . .

« وقد صممت أجهزتها الهاضمة بما يتناسب مع البيئة ، فأفواهها واسعة نسبيا ؛ وقد تجردت من الأنياب القوية والأضراس الصلبة . وبدلا منها توجد الأسنان التي تتميز بأنها قاصمة قاطعة؛ فهي تأكل الحشائش والنباتات بسرعة ، وتبتلعها كذلك دفعة واحدة ، حتى يمكنها أن تؤدى للإنسان ما خلقت لأجله من خدمات . وقد أوجدت العناية الخالقة لهذا الصنف أعجب أجهزة للهضم ، فالطعام الذي تأكله ينزل إلى الكرش ، وهو مخزن له ، فإذا ما انتهى عمل الحيوان اليومى وجلس للراحة . يذهب الطعام إلى تجويف يسمى « القلنسوة » . ثم يرجع إلى الفم ، فيمضغ ثانية مضغا جيدا ، حيث يذهب إلى تجويف ثالث يسمى « أم التلافيف »، ثم إلى رابع يسمى « الإنفحة » وكل هذه العملية الطويلة أعدت لحماية الحيوان ، إذ كثيرا ما يكون هدفا لهجوم حيوانات كاسرة في المراعى ، فوجب عليه أن يحصل على غذائه بسرعة ويختفى . ويقول العلم إن عملية الاجترار ضرورية بل وحيوية ، إذ أن العشب من النباتات العسرة الهضم ، لما يحتويه من السليلوز الذي يغلف جميع الخلايا النباتية ، ولهضمه يحتاج الحيوان إلى وقت طويل جدا ، فلو لم يكن مجترا ، وبمعدته مخزن خاص ، لضاع وقت طويل في الرعى ، يكاد يكون يوما بأكمله ، دون أن يحصل الحيوان على كفايته من الغذاء ، ولأجهد العضلات في عمليات التناول والمضغ . إنما سرعة الأكل ، ثم تخزينه وإعادته بعد أن يصيب شيئا من التخمر ، ليبدأ المضغ والطحن والبلع ، تحقق كافة أغراض الحيوان من عمل وغذاء وحسن هضم . فسبحان المدبر » (١) .

« والطيور الجارحة كالبوم والحدأة ذات منقار مقوس حاد على شكل خطاف لتمزيق اللحوم. بينما للإوز والبط مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، توائم البحث عن الغذاء في الطين والماء . وتحلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

«أما الدجاج والحمام وباقى الطيور التي تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها قصيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض . بينما منقار البجعة مثلا طويل طولا ملحوظا، ويمتد من أسفله كيس يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد . إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

« ومنقار الهدهد وأبو قردان طويل مدبب،أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان،

---

(١) المصدر السابق. ص ٧٢ ــ ٧٣

التى غالبا ما تكون تحت سطح الأرض . ويقول العلم : إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره . .

« أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب. فلما لم يعط أسنانا فقد خلقت له حوصلة وقانصة تهضم الطعام . ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام »(١) .

ويطول بنا الاستعراض ، ونخرج على منهج هذه الظلال ، لورحنا نتتبع الأنواع والأجناس الحية على هذا النحو ، فنسرع الخطى إلى « الإميبا » وهى ذات الخلية الواحدة ، لنرى يد الله معها ، وعينه عليها ، وهو يقدر لها أمرها تقديرا .

« والإميبا كائن حي دقيق الحجم ، يعيش فى البرك والمستنقعات ، أوعلى الأحجار الراسبة فى القاع . ولا يرى بالعين إطلاقا . وهو يرى بالمجاهر ، كتلة هلامية، يتغير شكلها بتغير الظروف والحاجات . فعندما تتحرك تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد ، تستعملها كالأقدام ، للسير بها إلى المكان المرغوب . ولذا تسمى هذه الزوائد بالأقدام الكاذبة. وإذا وجدت غذاء لها أمسكت به بزائدة أوزائدتين ، وتفرز عليه عصارة هاضمة ، فتتغذى بالمفيد منها ، أما الباقى فتطرده من جسمها ! وهى تتنفس من كل جسمها بأخذ الأكسوجين من الماء .. فتصور هذا الكائن الذى لا يرى إطلاقا بالعين ، يعيش ويتحرك ، ويتغذى ويتنفس ، ويخرج فضلاته ! فإذا ماتم نموه انقسم إلى قسمين ، ليكون كل قسم حيوانا جديدا » ..

«وعجائب الحياة فى النبات لا تقل فى إثارة العجب والدهشة عن عجائبها فى الإنسان والحيوان والطير . والتقدير فيها لا يقل ظهورا وبروزا عنه فى تلك الأحياء . « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » (٢) . .

* * *

على أن الأمر أعظم من هذا كله وأشمل فى التقدير والتدبير . إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدرة مدبرة صغيرها وكبيرها . كل حركة فى التاريخ كـكل انفعال فى نفس فرد ، ككل نفس يخرج من صدر ! إن هذا النفس مقدر فى وقته ، مقدر فى مكانه ، مقدر فى ظروفه كلها ، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون ، محسوب حسابه فى التناسق الكونى ، كالأحداث العظام الضخام !

وهذا العود البرى النابت وحده هناك فى الصحراء . . إنه هو الآخر قائم هناك بقدر . وهو

(١) المصدر السابق ص ٧٣ ــ ٧٤ — (٢) المصدر السابق ص ١٠١ ــ ١٠٢

يؤدى وظيفة ترتبط بالوجود كله منذ كان ! وهذه النملة السارية . وهذه الهباءة الطائرة . وهذه الخلية السابحة فى الماء . كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء !

تقدير فى الزمان ، وتقدير فى المكان ، وتقدير فى القدار ، وتقدير فى الصورة . وتناسق مطلق بين جميع الملابسات والأحوال .

من ذا الذى يذكر مثلا أن زواج يعقوب من امرأة أخرى هى أم يوسف وبنيامين أخيه ، لم يكن حادثا شخصيا فرديا . . إنما كان قدرا مقدورا ليحقد إخوة يوسف من غير أمه عليه ، فيأخذوه فيلقوه فى الجب ـ ولا يقتلوه ـ لتلتقطه السيارة . لتبيعه . فى مصر . لينشأ فى قصر العزيز . لتراوده امرأة العزيز عن نفسه . ليستعلى على الإغراء . ليلقى فى السجن . . لماذا ؟ ليتلاقى فى السجن مع خادمى الملك. ليفسر لهما الرؤيا . . لماذا؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب ! ويقف ناس من الناس يسألون : لماذا ؟ لماذا يارب يتعذب يوسف؟ لماذا يارب يتعذب يعقوب ؟ لماذا يفقد هذا النبى بصره من الحزن؟ ولماذا يسام يوسف الطيب الزكى كل هذا الألم، المنوع الأشكال؟ لماذا ؟ . . ولأول مرة تجىء أول إجابة بعد أكثر من ربع قرن فى العذاب . لأن القدر يعده ليتولى أمر مصر وشعبها والشعوب المجاورة فى سنى القحط السبعة ! ثم ماذا ؟ ثم ليستقدم أبويه وإخوته . ليكون من نسلهم شعب بنى إسرائيل . ليضطهدهم فرعون . لينشأ من بينهم موسى ـ وما صاحب حياته من تقدير وتدبير ـ لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش العالم فيها اليوم بكليته ! وتؤثر فى مجرى حياة العالم جميعه !

ومن ذا الذى يذكر مثلا أن زواج إبراهيم جد يعقوب من هاجر المصرية لم يكن حادثا شخصيا فرديا . إنما كان وماسبقه فى حياة إبراهيم من أحداث أدت إلى مغادرته موطنه فى العراق ومروره بمصر ، ليأخذ منها هاجر ، لتلد له إسماعيل . ليسكن إسماعيل وأمه عند البيت المحرم . لينشأ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نسل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى هذه الجزيرة . أصلح مكان على وجه الأرض لرسالة الإسلام . . ليكون من ذلك كله ذلك الحدث الأكبر فى تاريخ البشرية العام !

إنه قدر الله وراء طرف الخيط البعيد . لكل حادث . ولكل نشأة . ولكل مصير . ووراء كل نقطة ، وكل خطوة ، وكل تبديل أو تغيير .

إنه قدر الله النافذ ، الشامل ، الدقيق ، العميق .

وأحيانا يرى البشر طرف الخيط القريب ولا يرون طرفه البعيد . وأحيانا يتطاول الزمن بين

المبدأ والمصير في عمرهم القصير ، فتخفى عليهم حكمة التدبير . فيستعجلون ويقترحون . وقد يسخطون . أويتطاولون !

والله يعلمهم في هذا القرآن أن كل شيء بقدر ليسلموا الأمرلصاحب الأمر، وتطمئن قلوبهم وتستريح ويسيروا معقدر الله في توافق وفي تناسق، وفي أنس بصحبة القدر في خطوه المطمئن الثابت الوثيق . .

* * *

ومع التقدير والتدبير ، القدرة التي تفعل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات :

«وما أمرناإلا واحدة كلمح بالبصر » . .

فهي إشارة واحدة. أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر : الجليل والصغير سواء . وليس هنالك جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر للأشياء . وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح البصر . إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشري ناشيء من دورة أرضهم الصغيرة ، ولا وجود له في حساب الله المطلق من هذه التصورات المحدودة !

واحدة تنشيء هذا الوجود الهائل . وواحدة تبدل فيه وتغير . وواحدة تذهب به كما يشاء الله .وواحدة تحيي كل حي .وواحدة تذهب به هنا وهناك. وواحدة ترده إلى الموت . وواحدة تبعثه في صورة منالصور . وواحدة تبعث الخلائق جميعا .وواحدةتجمعهم ليوم الحشروالحساب. . واحدة لاتحتاج إلى جهد ، ولاتحتاج إلى زمن.واحدة فيها القدرة ومعها التقدير . وكلأمر معها مقدر ميسور .

* * *

وبواحدة كان هلاك المكذبين على مدار القرون . وفي هذه يذكرهم بمصير أمثالهم من المكذبين :

« ولقد أهلكناأشياعكم فهلمن مدكر؟وكل شيءفعلوه في الزبر،وكلصغيروكبير مستطر» .

فهذه مصارع المكذبين ، معروضة في الحلقات التي تضمنتها السورة من قبل .. « فهل من مدكر ؟ » . . يتذكر ويعتبر ؟

ولم ينته حسابهم بمصارعهم الأليمة ، فوراءهم حساب لايفلت منه شيء : « وكل شيء فعلوه في الزبر » . . مسطر في الصحائف ليوم الحساب :«وكل صغير وكبير مستطر » .. لاينسى منه شيء وهو مسطور في كتاب !

* * *

وعند هذا الحد من العرض والتعقيب ، يلتفت السياق إلى صفحة أخرى غير صفحة المكذبين . ويعرض صورة أخرى فى ظل وادع أمين . صورة المتقين :

« إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » . .

ذلك بينا المجرمون فى ضلال وسعر . يسحبون فى النار على وجوههم فى مهانة . ويلذعون بالتأنيب كما يلذعون بالسعير : « ذوقوا مس سقر » . .

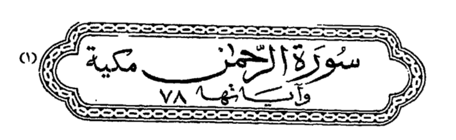
وهى صورة للنعيم بطرفيه : « فى جنات ونهر » . « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

نعيم الحس والجوارح فى تعبير جامع شامل : « فى جنات ونهر » يلقى ظلال النعماء واليسر حتى فى لفظه الناعم المنساب . . وليس لمجرد إيقاع القافية تجىء كلمة « نهر » بفتح الهاء ، بل كذلك لإلقاء ظل اليسر والنعومة فى جرس اللفظ وإيقاع التعبير !

ونعيم القلب والروح . نعيم القرب والتكريم : « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » . . فهو مقعد ثابت مطمئن ، قريب كريم ، مأنوس بالقرب ، مطمئن بالتمكين . ذلك أنهم المتقون . الخائفون . المترقبون . والله لا يجمع على نفس خوفين : خوفها منه فى الدنيا ، وخوفها يوم القيامة . فمن اتقاه فى العاجلة أمنه فى الآجلة . ومع الأمان فى أفزع موطن ، يغمره بالأنس والتكريم .

* * *

وعند هذا الإيقاع الهادئ ، فى هذا الظل الآمن ، تنتهى السورة التى حفلت حلقاتها بالفزع والكرب والأخذ والتدمير . فإذا للظل الآمن والإيقاع الهادئ طعم وروح أعمق وأروح . . وهذه هى التربية الكاملة . تربية العليم الحكيم بمسارب النفوس ومداخل القلوب . وهذا هو التقدير الدقيق لخالق كل شئ بقدر ، وهو اللطيف الخبير . .



(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

« ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ ، عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ * ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا ، وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ * وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ * وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

---

(١) فى روايات أنها مدنية وفى روايات أنها مكية . ونحن نرجح مكيتها . ونسقها تتضح فيه سمات القرآن المكى . شأنها فى هذا شأن سورة الرعد ، وفيها الاختلاف ذاته . وقد اعتبرناها مكية عند الحديث عنها للأسباب ذاتها .

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟* هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ؟ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ؟ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * مُدْهَامَّتَانِ *

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .

هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ . إنها إعلان عام فى ساحة الوجود الكبير، وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة . فى جميل صنعه، وإبداع خلقه ؛ وفى فيض نعمائه ؛ وفى تدبيره للوجود ومافيه ؛ وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم . . وهى إشهاد عام للوجود كله على الثقلين : الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء ، فى ساحة الوجود ، على مشهد من كل موجود ، مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله ، تحديا يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التى يعددها ويفصلها ويجعل ، الكون كله معرضا لها ، وساحة الآخرة كذلك .

ورنة الإعلان تتجلى فى بناء السورة كله ، وفى إيقاع فواصلها .. تتجلى فى إطلاق الصوت إلى أعلى ، وامتداد التصويت إلى بعيد ؛ كما تتجلى فى المطلع الموقظ الذى يستثير الترقب والانتظار لما يأتى بعد المطلع من أخبار . . الرحمان .. كلمة واحدة . مبتدأ مفردا . . الرحمان كلمة واحدة فى معناها الرحمة ، وفى رنتها الإعلان ، والسورة بعد ذلك بيان للمسات الرحمة ومعرض لآلاء الرحمان .

ويبدأ معرض الآلاء بتعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان. تسبق فى الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان .

ثم يذكر خلق الإنسان ، ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى .. البيان..

ومن ثم يفتح صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله .. الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء

المرفوعـة . والميزان الموضوع . والأرض ومافيها من فاكهة ونخـل وحب وريحان . والجن والإنس . والمشرقان والمغربان. والبحران بينهما برزخ لايبغيان ، ومايخرج منهما ومايجرى فيهما .

فإذا تم عرض هذه الصحائف الـكبار . عرض مشهد فنائها جميعا . مشهد الفناء المطلق للخلائق ، فى ظل الوجود المطلق لوجه الله الـكريم الباقى . الذى إليه تتوجه الخلائق جميعا ، ليتصرف فى أمرها بما يشاء .

وفى ظل الفناء المطلق والبقاء المطلق يجىء التهديد المروع والتحدى الـكونى للجن والإنس : « سنفرغ لـكم أيها الثقلان . يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لاتنفذون إلا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلاتنتصران . فبأى آلاء ربـكما تـكذبان ؟ » . .

ومن ثم يعرض مشهد النهاية . مشهد القيامة . يعرض فى صورة كونية . يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة ، ومشهد العذاب للمجرمين ، والثواب للمتقين فى تطويل وتفصيل .

ثم يجىء الختام المناسب لمعرض الآلاء : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » . .

* * *

إن السورة كلها إعلان عام فى ساحة الوجود الـكبير . إعلان ينطلق من الملإ الأعلى ، فتتجاوب به أرجاء الوجود . ويشهده كل من فى الوجود وكل مافى الوجود . .

* * *

الرحمان . . . .

هذا المطلع المقصود بلفظه ومعناه ، وإيقاعه وموسيقاه .

الرحمان . . . .

بهذا الرنين الذى تتجاوب أصداؤه الطليقة المديدة المدوية فى أرجاء هذا الـكون ، وفى جنبات هذا الوجود .

الرحمان . . . .

بهذا الإيقاع الصاعد الذاهب إلى بعيد ، يجلجل فى طباق الوجود ، ويخاطب كل موجود ؛ ويتلفت على رنته كل كائن ، وهو يملأ فضاء السماوات والأرض ، ويبلغ إلى كل سمع وكل قلب . .

الرحمان . . . .

ويسكت . وتنتهي الآية . ويصمت الوجود كله وينصت ، في ارتقاب الخبر العظيم . بعد المطلع العظيم .

ثم يجيء الخبر المترقب ، الذي يخفق له ضمير الوجود . . .

« علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان. فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

هذا هو المقطع الأول في بيان آلاء الرحمان . وهذا هو الخبر الأول بعد ذلك الإعلان .. « علم القرآن » . .

هذه النعمة الكبرى التي تتجلى فيها رحمة الرحمان بالإنسان . . القرآن .. الترجمة الصادقة الكاملة لنواميس هذا الوجود . ومنهج السماء للأرض . الذي يصل أهلها بناموس الوجود ؛ ويقيم عقيدتهم وتصوراتهم وموازينهم وقيمهم ونظمهم وأحوالهم على الأساس الثابت الذي يقوم عليه الوجود . فيمنحهم اليسر والطمأنينة والتفاهم والتجاوب مع الناموس .

القرآن الذي يفتح حواسهم ومشاعرهم على هذا الكون الجميل ، كأنما يطالعهم أول مرة ؛ فيجدد إحساسهم بوجودهم الذاتي ، كما يجدد إحساسهم بالكون من حولهم . ويزيد فيمنح كل شيء من حولهم حياة نابضة تتجاوب وتتعاطف مع البشر ؛ فإذا هم بين أصدقاء ، ورفاق أحياء ، حيثما ساروا أو أقاموا ، طوال رحلتهم على هذا الكوكب !

القرآن الذي يقر في أخلادهم أنهم خلفاء في الأرض ، وأنهم كرام على الله ، وأنهم حملة الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال .فيشعرهم بقيمتهم التي يستمدونها من تحقيق إنسانيتهم العليا ، بوسيلتها الوحيدة . . الإيمان . . الذي يحيي في أرواحهم نفخة الله . ويحقق نعمته الكبرى على الإنسان .

ومن ثم قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان . فبه يتحقق في هذا الكائن معنى الإنسان . « خلق الإنسان علمه البيان » . .

وندع ــ مؤقتا ــ خلق الإنسان ابتداء ، فسيأتي ذكره في مكانه من السورة بعد قليل . إذ المقصود من ذكره هنا هو ما ناله من تعليمه البيان .

إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ويبين ، ويتفاهم ، ويتجاوب مع الآخرين . . فننسى بطول الألفة عظمة هذه الهبة ، وضخامة هــذه الخارقة ، فيردنا القرآن إليها ، ويوقظنا لتدبرها ، فى مواضع شتى .

فما الإنسان ؟ ما أصله ؟ كيف يبدأ ؟ وكيف يُعلم البيان ؟

إنه هذه الخلية الواحدة التى تبدأ حياتها فى الرحم . خلية ساذجة صغيرة ، ضئيلة ، مهينة . ترى بالمجهر ، ولا تــكاد تَبين . وهى لا تُبين ! ! !

ولــكن هذه الخلية ماتلبث أن تــكون الجنين . الجنين المــكون من ملايين الخلايا المنوعة . . عظمية . وغضروفيــة . وعضلية . وعصبية . وجلدية . . ومنها كذلك تتــكون الجوارح والحواس ووظائفها المدهشة : السمع . البصر . الذوق . الشم . اللمس . ثم . . ثم الخارقة الــكبرى والسر الأعظم الإدراك والبيان ، والشعور والإلهام . . كله من تلك الخلية الواحــدة الساذجة الصغيرة الضئيلة المهينة ، التى لا تــكاد تَبين ، والتى لا تُبين !

كيف ؟ ومن أين ؟ من الرحمان ، وبصنع الرحمان .

فلننظر كيف يكون البيان ؟ : « والله أخرجكم من بطون أمهاتــكم لا تعلمون شيئا وجعل لــكم السمع والأبصار والأفئدة » . .

إن تــكوين جهاز النطق وحده عجيبة لاينقضى منها العجب . . اللسان والشفتان والفك والأسنان . والحنجرة والقصبة الهوائية والشعب والرئتان . . إنها كلها تشترك فى عملية التصويت الآلية وهى حلقة فى سلسلة البيان . وهى على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب الميــكانيــكى الآلى فى هذه العملية المعقدة ، المتعلقة بعد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب . ثم بالعقل الذى لا نعرف عنه إلا اسمه . ولا ندرى شيئا عن ماهيته وحقيقته . بل لا نــكاد ندرى شيئا عن عمله وطريقته !

كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد ؟

إنها عملية معقدة كثيرة المراحــل والخطوات والأجهزة . مجهولة فى بعض المراحل خافية حتى الآن .

إنها تبدأ شعورا بالحاجة إلى النطق بهــذا اللفظ لأداء غرض معين . هــذا الشعور ينتقل — لاندرى كيف — من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية . . المخ . . ويقال : إن المخ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق بهذا اللفظ المطلوب . واللفظ ذاته مما علمه الله

للإنسان وعرفه معناه . وهنا تطرد الرئة قدرا من الهـواء المختزن فيها ، ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التى لاتقاس إليها أوتار أية آلة صـوتية صنعها الإنسان ،ولا جميع الآلات الصوتية المختلفة الأنغام ! فيصوت الهـواء فى الحنجرة صوتا تشـكله حسبما يريد العقل . . عاليا أو خافتا . سريعا أو بطيئا . خشنا أو ناعما . ضخما أو رقيقا . . إلى آخر أشكال الصوت وصفاته . ومع الحنجرة اللسان والشفتان والفك والأسنان ، يمر بها هذا الصوت فيتشكل بضغوط خاصة فى مخارج الحروف المختلفة . وفى اللسان خاصة يمر كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع معين ، يتم فيه الضغط المعين ، ليصوّت الحرف بجرس معين . .

وذلك كله لفظ واحد . . ووراءه العبارة . والموضوع . والفـكرة . والمشاعر السابقة واللاحقة . وكل منها عالم عجيب غريب ، ينشأ فى هذا الـكيان الإنسانى العجيب الغريب . بصنعة الرحمان . وفضل الرحمان .

***

ثم يستطرد فى بيان آلاء الرحمان فى المعرض الـكونى العام :

« الشمس والقمر بحسبان » . .

حيث تتجلى دقة التقدير ، فى تنسيق التـكوين والحركة ، بما يملأ القلب روعة ودهشة ، وشعورا بضخامة هذه الإشارة ، ومافى طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار .

إن الشمس ليست هى أكبر مافى السماء من أجرام . فهنالك فى هذا الفضاء الذى لايعرف البشر له حدودا ، ملايين الملايين من النجوم ، منها الـكثير أكبر من الشمس وأشـد حرارة وضوءا . فالشعرى اليمانية أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس . والسماك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس ونوره ثمانية آلاف ضعف . وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمئة مرة . . . وهكذا . . .

ولـكن الشمس هى أهم نجم بالنسبة لنا ـ نحن سكان الـكوكب الأرضى الصغير ، الذى يعيش هو وسكانه جميعا على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها .

وكذلك القمر وهو تابع صغير للأرض . ولـكنه ذو أثر قوى فى حياتها . وهو العامل الأهم فى حركة الجزر والمد فى البحار .

وحجم الشمس ، ودرجة حرارتها ، وبعدها عنا ، وسيرها فى فلـكها . وكذلك حجم القمر

وبعده ودورته .. كلها محسوبة حسابا كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما فى حياة الأرض. وبالقياس إلى وضعهما فى الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى ..

ونتناول طرفا من الحساب الدقيق فى علاقتهما بكوكبنا الأرضى وما عليه من حياة وأحياء ..

إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال . ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحترقت الأرض أوانصهرت أواستحالت بخارا يتصاعد فى الفضاء ! ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة ! والذى يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءا من مليونى جزء من حرارتها . وهذا القدر الضئيل هو الذى يلائم حياتنا . ولو كانت الشعرى بضخامتها وإشعاعها هى التى فى مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية ، وذهبت بددا !

وكذلك القمر فى حجمه وبعده عن الأرض . فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذى يحدثه فى بحار الأرض كافيا لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها . وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذى لا يخطىء مقدار شعرة !

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما فى وزن وضعها ، وضبط خطاها فى هذا الفضاء الشاسع الرهيب ، الذى تجرى فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل فى الساعة فى اتجاه واحد نحو برج الجبار . ومع هذا لا تلتقى بأى نجم فى طريقها على ملايين السنين !

وفى هذا الفضاء الشاسع الرهيب لا يختل مدار نجم بمقدار شعرة ، ولا يختل حساب التوازن والتناسق فى حجم ولا حركة .

وصدق الله العظيم .. « الشمس والقمر بحسبان » .

« والنجم والشجر يسجدان » ..

وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير فى بناء الكون الكبير . فأما هذه فهى إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه . وهى إشارة موحية إلى حقيقة هادية .

إن هذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول ، وخالقه المبدع . والنجم والشجر نموذجان منه ، يدلان على اتجاهه كله . وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذى فى السماء . كما

فسره بعضهم بأنه النبات الذى لايستوى على سوقه كالشجر . وسواء كان هذا أم كان ذاك فإن مدى الإشارة فى النص واحد . ينتهى إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه .

والكون خليقة حية ذات روح . روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن . ولكنها فى حقيقتها واحدة .

ولقد أدرك القلب البشرى منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية فى الكون كله . وحقيقة اتجاه روحه إلى خالقه . أدركها بالإلهام اللدنى فيه . ولكنها كانت تغيم عليه ، وتتوارى عنه كلما حاول اقتناصها بعقله المقيد بتجارب الحواس !

ولقد استطاع أخيرا أن يصل إلى أطراف قريبة من حقيقة الوحدة فى بناء الكون . ولكنه لايزال بعيدا عن الوصول إلى حقيقة روحه الحية عن هذا الطريق !

والعلم يميل اليوم إلى افتراض أن الذرة هى وحدة بناء الكون ؛ وأنها فى حقيقتها مجرد إشعاع . وأن الحركة هى قاعدة الكون ، والخاصية المشتركة بين جميع أفراده .

فإلى أين يتجه الكون بحركته التى هى قاعدته وخاصيته ؟

القرآن يقول : إنه يتجه إلى مبدعه بحركة روحه ـ وهى الحركة الأصيلة فحركة ظاهره لاتكون إلا تعبيرا عن حركة روحه ـ وهى الحركة التى تمثلها فى القرآن آيات كثيرة منها هذه : « والنجم والشجر يسجدان » . . ومنها : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . ومنها : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه » . .

وتأمل هذه الحقيقة ، ومتابعة الكون فى عبادته وتسبيحه ، مما يمنح القلب البشرى متاعا عجيبا ، وهو يشعر بكل ماحوله حيا يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه وهو فى وقفته بين أرواح الأشياء كلها ، وهى تدب فيها جميعا ، وتحيلها إخوانا له ورفقاء !

إنها إشارة ذات أبعاد وآماد وأعماق . . .

« والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »

والإشارة إلى السماء ـ كباقى الإشارات القرآنية إلى مجالى هذا الكون ـ تقصد إلى تنبيه القلب الغافل ، وإنقاذه من بلادة الألفة ، وإيقاظه لعظمة هذا الكون وتناسقه وجماله ، وإلى قدرة اليد التى أبدعته وجلالها .

والإشارة إلى السماء — أيا كان مدلول السماء — توجه النظر إلى أعلى . إلى هذا الفضاء الهائل السامق الذى لاتبدو له حدود معروفة ؛ والذى تسبح فيه ملايين الملايين من الأجرام الضخمة ، فلايلتقى منها اثنان ، ولا تصطدم مجموعة منها بمجموعة . ويبلغ عدد المجموعة أحيانا ألف مليون نجم ، كمجموعة المجرة التى ينتسب إليها عالمنا الشمسى ، وفيها ماهو أصغر من شمسنا وما هو أكبر آلاف المرات . شمسنا التى يبلغ قطرها مليونا وثلث مليون كيلو متر ! ! ! وكل هذه النجوم ، وكل هـذه المجموعات تجرى فى الـكون بسرعات مخيفة ، ولـكنها فى هذا الفضاء الهائل ذرات سابحة متباعدة ، لاتلتقى ، ولا تتصادم !

وإلى جوار هذه العظمة فى رفع هذه السماء الهائلة الوسيعة « وضع الميزان » ميزان الحق . وضعه ثابتا راسخا مستقرا . وضعه لتقدير القيم . قيم الأشخاص والأحـداث والأشياء . كى لايختل تقويمها ، ولا يضطرب وزنها ، ولا تتبع الجهل والغرض والهوى . وضعه فى الفطرة ووضعه فى هذا المنهج الإلهى الذى جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن :

وضع الميزان .. « ألا تطغوا فى الميزان » .. فتغالوا وتفرطوا .. « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . . ومن ثم يستقر الوزن بالقسط ، بلا طغيان ولا خسران .

ومن ثم يرتبط الحق فى الأرض وفى حياة البشر ، ببناء الـكون ونظامه . يرتبط بالسماء فى مدلولها المعنوى حيث يتنزل منها وحى الله ونهجه . ومدلولها المنظور حيث تمثل ضخامة الـكون وثباته بأمر الله وقدرته . . ويلتقى هذان المدلولان فى الحس بإيقاعها وظلالها الموحية .

« والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان » .

ونحن لطول استقرارنا على هذه الأرض ، وألفتنا لأوضاعها وظواهرها ، ولوضعنا نحن كذلك عليها : نحن لهذا كله لانـكاد نحس يد القدرة التى « وضعت » هذه الأرض للأنام . وجعلت استقرارنا عليها ممكنا وميسورا إلى الحد الذى لانـكاد نشعر به . ولانتنبه إلى ضخامة معنى الاستقرار ، وعظمة نعمة الله علينا فيه — إلا بين الحين والحين حين يثور بركان ، أو يمور زلزال ، فيؤرجح هذه الأرض المطمئنة من تحتنا ، فتضطرب وتمور . عندئذ تتذكر معنى الاستقرار الذى نستمتع به على هذه الأرض بنعمة الله .

والبشر خليقون أن يتذكروا هذه الحقيقة فى كل لحظة ، لو أنهم ألقوا بالهم إلى أن أرضهم هذه التى يركنون إليها ، إن هى إلا هباءة سابحة فى فضاء الله الوسيع . هباءة تسبح فى هذا

الفضاء المطلق . تسبح حول نفسها بسرعة نحو ألف ميل فى الساعة . وتسبح — مع هذا — حول الشمس بسرعة ستين ألف ميل فى الساعة . بينما هى والشمس والمجموعة الشمسية كلها تبعد بجملتها فى هذا الفضاء بسرعة عشرين ألف ميل فى الساعة متجهة فى اتجاه واحد نحو برج الجبار فى السماء !

أجل لو أنهم ألقوا بالهم إلى أنهم محمولون على هذه الهباءة السابحة التى تنهب الفضاء نهبا بهذه السرعة ، معلقة فى أجوازه بغير شىء إلا قدرة الله . . لظلوا أبدا معلقى القلوب والأبصار ، واجفى الأرواح والأوصال ، لا يركنون إلا للواحد القهار الذى وضع الأرض للأنام ، وأقرهم عليها هذا الإقرار !!

ولقد يسر لهم فيها الحياة ، وهى تدور بهم حول نفسها وحول الشمس ، وتركض مع الشمس وتوابعها بتلك السرعة المذهلة . وقدر فيها أقواتها التى يذكر منها هنا الفاكهة — ويخص منها النخل ذات الأكمام — (والكم كيس الطلع الذى ينشأ منه الثمر) ليشير إلى جمال هيئتها بجانب فائدة ثمرتها . ويذكر منها الحب ذا الورق والسيقان التى تعصف وتصير طعاما للماشية . ويذكر منها الريحان . النبات ذا الرائحة . . وهى ألوان من نبات الأرض شتى . منها ماهو طعام للإنسان ومنها ماهو طعام للدواب ، ومنها ماهو روح للناس ومتاع .

وعند هذا المقطع من تعداد أنعم الله وآلائه : تعليم القرآن . وخلق الإنسان . وتعليمه البيان . وتنسيق الشمس والقمر بحسبان . ورفع السماء ووضع الميزان . ووضع الأرض للأنام . ومافيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . . عند هذا المقطع يهتف بالجن والإنسان ، فى مواجهة الكون وأهل الكون : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . . وهو سؤال للتسجيل والإشهاد . فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمان فى مثل هذا المقام .

* * *

ثم ينتقل من الامتنان عليهما بآلاء الله فى الكون ، إلى الامتنان عليهما بآلائه فى ذوات أنفسهما ، وفى خاصة وجودهما وإنشائهما :

« خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

ونعمة الإيجاد والإنشاء أصل النعمة . والمسافة بين الوجود وعدم الوجود ابتداء مسافة

لاتقاس أبعادها بأى مقياس مما يألفه البشر . فجميع المقاييس التى فى أيدى البشر أو التى تدركها عقولهم ، هى مقاييس للفارق بين موجود وموجود . أما المسافة بين الموجود وغير الموجود فلا تدركها مدارك البشر بحال ! ونحسب الجن كذلك ، فإن هم إلا خلق مقاييسه مقاييس المخلوقات !

فحين يمتن الله على الجن والإنس بنعمة الإيجاد والإنشاء ؛ فإنما يمتن عليهما بالنعمة التى تفوق حد الإدراك .

ثم يقرر الحق سبحانه مادة خلق الإنس والجن ، وهى كذلك من خلق الله . والصلصال : الطين إذا يبس وصار له صوت وصلصلة عند الضرب عليه . وقد تكون هذة حلقة فى سلسلة النشأة من الطين أو من التراب . كما أنها قد تكون تعبيرا عن حقيقة الوحدة بين مادة الإنسان ومادة الأرض فى عناصر التكوين .

« وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوى من العناصر ما تحتويه الأرض . فهو يتكون من الكربون ، والأكسيجين ، والأيدروجين ، والفوسفور ، والكبريت ، والآزوت ، والكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والمغنسيوم ، والحديد ، والمنجنيز ، والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والزنك ، والسلكون ، والألمنيوم . وهذه نفسها هى العناصر المكونة للتراب . وإن اختلفت نسبها فى إنسان عن الآخر ، وفى الإنسان عن التراب . إلا أن أصنافها واحدة » (١) .

إلا أن هذا الذى أثبته العلم لايجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمى للنص القرآنى . فقد تكون الحقيقة القرآنية تعنى هذا الذى أثبته العلم ، أو تعنى شيئا آخر سواه . وتقصد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة التى يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب ، أو طين أو صلصال .

والذى ننبه إليه بشدة هو ضرورة عدم قصر النص القرآنى على كشف علمى بشرى ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كلما اتسعت معارف الإنسان وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة . فإن بعض المخلصين من الباحثين يسارعون إلى المطابقة بين مدلول النصوص القرآنية والكشوف العلمية – تجريبية أو افتراضية – بنية بيان مافى القرآن من إعجاز . فالقرآن معجز سواء طابقت الكشوف العلمية المتأرجحة نصوصه الثابتة أم لم تطابقها . ونصوصه أوسع مدلولا من حصرها فى نطاق تلك الكشوف القابلة دائما للتبديل والتعديل ، بل للخطأ والصواب

(١) كتاب : الله والعلم الحديث ص ١٨٠ .

من الأساس ! وكل مايستفاد من الكشوف العلمية فى تفسير نصوص القرآن ، هو توسيع مدلولها فى تصورنا كلما أطلعنا العلم على شىء مما تشير إليه إشارات مجملة من آيات الله فى الأنفس والآفاق ، دون أن يحمل النص القرآنى على أن مدلوله هو هذا الذى كشفه العلم . إنما جواز أن يكون هذا بعض مايشير إليه .

فأما خلق الجان من مارج من نار . فمسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية . والمصدر الواحد فيها هو هذا القرآن . خبر الله الصادق . الذى خلق وهو أعلم بمن خلق . . والمارج : المشتعل المتحرك كألسنة النار مع الرياح ! وللجان قدرة على الحياة فى هذه الأرض مع الإنس . ولكنا لاندرى كيف يعيش الجان وقبيله . فأما الأمر المستيقن فهو أنهم مخاطبون بهذا القرآن كما سبق بيانه عند تفسير قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . » وكما هو الحال هنا فى سورة الرحمان .

والخطاب هنا للجن والإنس ، لتذكيرها بنعمة الوجود . كلٌّ من الأصل الذى أنشأه الله منه . وهى النعمة التى تقوم عليها سائر النعم . ومن ثم يعقب عليها بتعقيب التسجيل والإشهاد العام : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .. ولاتكذيب فى هذا المقام المشهود !

* * *

« رب المشرقين ورب المغربين . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ »

وهذه الإشارة التى تملأ القلب بفيض غامر من الشعور بوجود الله ، حيثما توجه ، وحيثما تلفت ، وحيثما امتد به النظرحوله فى الآفاق .. فحيث الشروق وحيث الغروب هناك الله ..ربوبيته ومشيئته وسلطانه ، ونوره وتوجيهه وهدايته ..

والمشرقان والمغربان قد يكون المقصود بها شروق الشمس وشروق القمر. وغروبها كذلك . بمناسبة ذكر الشمس والقمر فيما تقدم من آلاء الله . وقد يكون المقصود مشرقى الشمس المختلفى الموضع فى الصيف والشتاء ومغربيها كذلك .

وعلى أية حال فإن ظلال هذه الإشارة هى الأولى بالالتفات . ظلال الاتجاه إلى المشرق والمغرب ، والشعور بالله هناك ، والإحساس بيده تحرك الكواكب والأفلاك ، ورؤية نوره وربوبيته فى الآفاق هنا وهناك . والرصيد الذى يؤوب به القلب من هذا التأمل والتدبر والنظر فى المشارق والمغارب ، والزاد الشعورى الذى تفيض به الجوانح وتذخره الأرواح .

وربوبية الله للمشرقين والمغربين ، بعض آلائه في هذا الكون . ومن ثم يجيء التعقيب المعهود في السورة ، بعد هذه اللفتة القصيرة : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » والشرقان والمغربان فوق أنهما من آيات الله هما من آلاء الله على الجن والإنس ، بما يتحقق فيهما من الخير لسكان هذه الأرض جميعا . بل من أسباب الحياة التي تنشأ مع الشروق ، وتحتاج كذلك إلى الغروب . ولو اختل أحدهما أو كلاهما لتعطلت أسباب الحياة .

***

ومن هذه السبحة البعيدة الآفاق يعود إلى الأرض ، وما فيها من ماء ، جعله الله بقدر . قدر في نوعه ، وقدر في تصريفه ، وقدر في الانتفاع به :

« مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ وله الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

والبحران المشار إليهما هما البحر المالح والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثاني الأنهار . ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان ، ولكنهما لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله .

وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لم يجيء مصادفة ولا جزافا . فهو مقدر تقديرا عجيبا . الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ؛ ويشغل اليابس الربع . وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائما صالحا للحياة .

« وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور — ومعظمها سام — فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع — ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء — أي المحيط — » (١)

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس ؛ وهي التي تعود فتسقط أمطارا يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله . وأعظمها الأنهار . والتوافق بين

(١) عن كتاب الإنسان لا يقف وحده تأليف (ا . كرسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ترجمة محمد صالح الفلكي بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا ، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذى ينشأ عنه المطر الذى تتكون منه كتلة الماء العذب .

وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة . من نبات وحيوان وإنسان . .

وتصب جميع الأنهار ــ تقريبا ــ فى البحار . وهى التى تنقل إليها أملاح الأرض ، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغى عليها . ومستوى سطوح الأنهار أعلى فى العادة من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لايبغى البحر على الأنهار التى تصب فيه ، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح ، فيحولها عن وظيفتها ويبغى على طبيعتها ! وبينها دائما هذا البرزخ من صنع الله . فلا يبغيان .

فلا عجب يذكر البحرين ، وما بينهما من برزخ ، فى مجال الآلاء : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

ثم يذكر من آلاء الله فى البحرين بعض ماهو قريب منهم فى حياتهم .

« يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » . .

واللؤلؤ ــ فى أصله ــ حيوان . و « لعل اللؤلؤ أعجب مافى البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق ، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار ، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية فى تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، عجيبة النسج ، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها . وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه . فإذا دخلت ذرة رمل ، أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة ، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة ! وعلى حسب حجم الذرة التى وصلت يختلف حجم اللؤلؤة ! » (1) . .

« والمرجان من عجائب مخلوقات الله ، يعيش فى البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاث مئة متر ، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب . وفتحة فمه التى فى أعلى جسمه ، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها فى غذائه . فإذا لمست فريسة هذه الزوائد ، وكثيرا ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء ، أصيبت بالشلل فى الحال ، والتصقت بها ، فتنكمش الزوائد وتنحنى نحو الفم ، حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناة ضيقة تشبه مرىء الإنسان .

« ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه ، يتم بها إخصاب البويضات ، حيث يتكون الجنين الذى يلجأ إلى صخرة أو عشب يلتصق به ، ويكون حياة منفردة ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان الأصلى .

(1) عن كتاب الله والعلم الحديث ص ١٠٥ .

« ومن دلائل قدرة الخالق ، أن حيوان المرجان يتكاثر بطريقة أخرى هى التزرر . وتبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التى تزررت منها ، وهكذا تتكون شجرة المرجان التى تكون ذات ساق سميكة . تأخذ فى الدقة نحو الفروع التى تبلغ غاية الدقة فى نهايتها . ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمترا . والجزر المرجانية الحية ذات ألوان مختلفة ، نراها فى البحار صفراء برتقالية ، أو حمراء قرنفلية ، أو زرقاء زمردية ، أو غبراء باهتة .

« والمرجان الأحمر هو المحور الصلب المتبقى بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان ، وتكون الهياكل الحجرية مستعمرات هائلة .

« ومن هذه المستعمرات سلسلة الصخور المرجانية المعروفة باسم الحاجز المرجانى الكبير ، الموجود بالشمال الشرقى لأستراليا . ويبلغ طول هذه السلسلة ، ألفا و ٣٥٠ ميل وعرضها ٥٠ ميلا . وهى مكونة من هذه الكائنات الحية الدقيقة الحجم » (١) .

ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ حلى غالية الثمن عالية القيمة ، ويمتن الله على عباده بها ، فيعقب على ذكرهما فى السورة ذلك التعقيب المشهود : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ »

ثم ينتقل إلى الفلك التى تجرى فى البحار ، كأنها لضخامتها الجبال :

« وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام » ..

ويجعل هذه الجوارى المنشآت « له » سبحانه وتعالى . فهى تجرى بقدرته . ولا يحفظها فى خضم البحر وثبج الموج إلا حفظه ولا يقرها على سطحه المتماوج إلا كلاءته . فهى له سبحانه. وقد كانت — وما تزال — من أضخم النعم التى من الله بها على العباد ، فيسرت لهم من أسباب الحياة والانتقال والرفاهية والكسب ماهو جدير بأن يذكر ولا ينكر . فهو من الضخامة والوضوح بحيث يصعب التكذيب به والإنكار . . « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

* * *

والآن ينتهى هذا الاستعراض فى صفحة الكون المنظور ، وتطوى صفحة الخلق الفانى ، وتتوارى أشباح الخلائق جميعا ، ويفرغ المجال من كل حى ، ويتجلى وجه الكريم الباقى ، متفردا بالبقاء ، متفردا بالجلال ؛ وتستقر فى الحس حقيقة البقاء ، وهو يشهد ظلال الفناء :

« كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٦ — ١٠٧ .

وفى ظل هذا النص القرآنى تخفت الأنفاس ، وتخشع الأصوات ، وتسكن الجوارح . . . وظل الفناء يشمل كل حى ، ويطوى كل حركة ، ويغمر آفاق السماوات والأرض . . وجلال الوجـه الـكريم الباقى يظلل النفوس والجوارح ، والزمان والمكان ، ويغمر الوجـود كله بالجلال والوقار . .

ولا يملك التعبير البشرى أن يصور الموقف ؛ ولا يملك أن يزيد شيئا على النص القرآنى ، الذى يسكب فى الجوانح السكون الخاشع ، والجلال الغامر ، والصمت الرهيب ، والذى يرسم مشهد الفناء الخاوى ، وسكون الموت المخيم بلا حركة ، ولا نأمة فى هذا السكون الذى كان حافلا بالحركة والحياة . ويرسم فى الوقت ذاته حقيقة البقاء الدائم ، ويطبعها فى الحس البشرى الذى لا يعرف فى تجاربه صورة للبقاء الدائم ؛ ولكنه يدركها بعمق فى ذلك النص القرآنى العجيب!

ويعقب على هذه اللمسة العميقة الأثر بنفس التعقيب . فبعد استقرار هذه الحقيقة . حقيقة الفناء لـكل من عليها ، وبقاء الوجه الجليل الـكريم وحده . بعد استقرار هذه الحقيقة نعمة يواجه بها الجن والإنس فى معرض الآلاء : « فبأى آلاء ربكما تـكذبان ؟ » . .

وإنها لنعمة . بل هى أساس النعم كلها جميعا . فمن حقيقة الوجود الباقى ينبثق كل هذا الخلق ؛ وناموسه ونظامه وخصائصه . كما تستقر سننه وقيمه ومآله وجزاؤه . والحى الباقى هو الذى يخلق ويبدع ، وهو الذى يحفظ ويكلأ ، وهو الذى يحاسب ويجزى . وهو الذى يشرف من أفق البقاء على ساحة الفناء . . فمن حقيقة البقاء إذن تنبثق جميع الآلاء . وما يبزغ هذا العالم ومايستقيم أمره إلا ووراءه هذه الحقيقة . حقيقة البقاء وراء الفناء .

* * *

ومن حقيقة البقاء الدائم وراء الخلق الفانى ، تنبثق حقيقة أخرى .. فـكل أبناء الفناء إنما يتجهون فى كل مايقوم بوجودهم إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الحى القيوم :

« يسأله من فى السماوات والأرض، كل يوم هو فى شأن . فبأى آلاء ربـكما تـكذبان؟» .

يسأله من فى السماوات والأرض ، فهو مناط السؤال ؛ وغيره لا يسأل لأنه فان لا يتعلق به سؤال .. يسألونه وهو وحده الذى يستجيب، وقاصده وحده هو الذى لا يخيب . ومايتجه أحد إلى سواه إلا حين يضل عن مناط السؤال ومعقد الرجاء ومظنة الجواب . وماذا يملك الفانى للفانى وماذا يملك المحتاج للمحتاج ؟

وهو ـ سبحانه ـ كل يوم هو فى شأن . وهذا الوجود الذى لاتعرف له حدود، كله منوط بقدره ، متعلق بمشيئته، وهو قائم بتدبيره . هذا التدبير الذى يتناول الوجود كله جملة ؛ ويتناول كل فرد فيه على حدة ؛ ويتناول كل عضو وكل خلية وكل ذرة . ويعطى كل شىء خلقه ، كما يعطيه وظيفته ، ثم يلحظه وهو يؤدى وظيفته .

هذا التدبير الذى يتبع ماينبت ومايسقط من ورقة ، ومايكمن من حبة فى ظلمات الأرض، وكل رطب وكل يابس . يتبع الأسماك فى بحارها ، والديدان فى مساربها ، والحشرات فى مخابئها . والوحوش فى أوكارها ، والطيور فى أعشاشها . وكل بيضة وكل فرخ . وكل جناح . وكل ريشة . وكل خلية فى جسم حى .

وصاحب التدبير لايشغله شأن عن شأن ، ولايند عن علمه ظاهر ولاخاف . .

ومن هذا الشأن شأن العباد فى الأرض من إنس وجن . ومن ثم فهو يواجههما بهذه النعمة مواجهة التسجيل والإشهاد : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

* * *

وبتقرير حقيقة البقاء وراء الفناء ، وما ينبثق منها من حقيقة الاتجاه الكلى إلى الواحد الباقى، وتعلق مشيئته ـ سبحانه ـ بشئون الخلائق وتقديرها وتدبيرها ؛ فضلا منه ومنة على العباد . .

بتقرير هذه الحقيقة الكلية وماينبثق عنها من حقائق ينتهى الاستعراض الكونى ، ومواجهة الجن والإنس به ؛ ويبدأ مقطع جديد . فيه تهديد وفيه وعيد . تهديد مرعب مفزع ، ووعيد مزلزل مضعضع . تمهيدا لهول القيامة الذى يطالع الثقلين فى سياق السورة بعد ذلك :

« سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لاتنفذون إلا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟» . .

« سنفرغ لكم أيها الثقلان » . .

ياللهول المرعب المزلزل ، الذى لايثبت له إنس ولا جان . ولا تقف له الجبال الرواسى ولا النجوم والأفلاك !

الله. جل جلاله . الله القوى القادر ،القهار الجبار ، الكبير المتعال . الله ـ سبحانه ـ يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين : الجن والإنس ، فى وعيد وانتقام !

إنه أمر . إنه هول . إنه فوق كل تصور واحتمال !

والله ـ سبحانه ـ ليس مشغولا فيفرغ . وإنما هو تقريب الأمر للتصور البشرى . وإيقاع الوعيد فى صورة مذهلة مزلزلة ، تنسحق الكيان بمجرد تصورها سحقا فهذا الوجود كله نشأ بكلمة . كلة واحدة . كن فيكون . وتدميره أو سحقه لايحتاج إلا واحدة كلمح بالبصر . فكيف يكون حال الثقلين ، والله يفرغ لهما وحدهما ، ليتولاهما بالانتقام ؟ !

وفى ظل هذا الهول الرعيب يسأل الثقلين المسكينين : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

ثم يمضى فى الإيقاع المرعب المزلزل ، يتحداهما أن ينفذا من أقطار السماوات والأرض :

« يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا » . .

وكيف ؟ وأين ؟

« لاتنفذون إلا بسلطان » .

ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان . .

ومرة أخرى يواجههما بالسؤال : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟

وهل بقى فى كيانهما شىء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان ؟ !

ولكن الحملة الساحقة تستمر إلى نهايتها ، والتهديد الرعيب يلاحقهما ، والمصير المردى يتمثل لهما :

« يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » . .

« فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

إنها صورة من الهول فوق مألوف البشر ـ وفوق مألوف كل خلق ـ وفوق تصور البشر وتصور كل خلق . وهى صورة فريدة ،وردت لها نظائر قليلة فى القرآن ، تشبهها ولا تماثلها . كما قال تعالى مرة : « فذرنى والمكذبين أولى النعمة » . . وكما قال : « ذرنى ومن خلقت وحيدا » . . وما يزال قوله تعالى: «سنفرغ لكم أيها الثقلان » . . أعنف وأقوى وأرعب وأدهى . .

* * *

ومن هنا إلى نهاية السورة تبدأ مشاهد اليوم الآخر . مشهد الانقلاب الكونى يوم القيامة . وما يعقبه من مشاهد الحساب . ومشاهد العذاب والثواب .

ويبدأ استعراض هذه المشاهد بمشهد كونى يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكونى :

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .

وردة حمراء ، سائلة كالدهان .. ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها . منها هذه الآية . ومنها : « إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا » .. ومنها : « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر » .. ومنها : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت » .. ومنها : « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت » .. ومنها : « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » .. وهذه وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذي سيقع في الكون كله . ولا يعلم حقيقته إلا الله ..

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .. « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ولا تكذيب عندئذ ولا نكران ..

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » .. وذلك في موقف من مواقف ذلك اليوم المشهود . الذي ستكون فيه مواقف شتى . منها ما يسأل فيه العباد ، ومنها مالا يسألون فيه عن شيء . ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلقى به التبعة على شركائها ، ومنها مالا يسمح فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام ! فهو يوم طويل مديد . وكل موقف من مواقفه هائل مشهود .

وهنا موقف : لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان . ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله . وتبدو في الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجوة بياضاً ، ويظهر هذا وذاك في سيما الوجوه . ففي هذا الموقف هل من تكذيب ونكران : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

« يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » .

وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان . حيث تجمع الأقدام إلى الجباه ، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار .. فهل حينذاك من تكذيب أو نكران ؟

وبينما المشهد معروض ، والأخذ بالنواصي والأقدام والقذف في النار مستمر ، يلتفت السياق إلى شهود هذا الاستعراض ، وكأنهم حاضرون عند تلاوة السورة فيقول لهم :

« هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون » . . هذه هى حاضرة معروضة ــ كما ترون ــ « يطوفون بينها وبين حميم آن » .. متناه فى الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار! وهم يتراوحون بين جهنم و بين هذا السائل الآنى . انظروا إنهم يطوفون الآن! « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟» !

هــذه صفة العذاب الأليم . والآن إلى صفة النعيم والتكريم :

« ولمن خاف مقام ربه جنتان » ..

وللمرة الأولى ــ فيما مربنا من سور القرآن ــ تذكر الجنتان . والأظهر أنهما ضمن الجنة الـكبيرة المعروفة ! ولـكن اختصاصهاهنا بالذكر قد يكون لمرتبتهما . وسيأتى فى سورة الواقعة أن أصحاب الجنة فريقان كبيران : هما السابقون المقربون . وأصحاب اليمين . ولـكل منهما نعيم. فهنا كذلك نلمح أن هاتين الجنتين هما لفريق ذى مرتبة عالية . وقد يكون فريق السابقين المقربين المذكورين فى سورة الواقعة . ثم نرى جنتين أخريين من دون هاتين . ونلمح أنهما لفريق يلى ذلك الفريق . وقد يكون هو فريق أصحاب اليمين .

على أية حال فلنشهد الجنتين الأوليين ، ولنعش فيهما لحظات !

إنهما « ذواتا أفنان » . . والأفنان الأغصان الصغيرة الندية . فهما ريانتان نضرتان .

« فيهما عينان تجريان » .. فماؤهما غزير ، وسهل يسير .

« فيهما من كل فاكهة زوجان ».. ففاكهتهما منوعة كثيرة وفيرة .

وأهل الجنتين ماحالهم ؟ إننا ننظرهم :« متكئين على فرش بطائنها من إستبرق» والإستبرق المخمل الحرير السميك . فكيف بظهائر هذه الفرش إذاكانت تلك بطائنها ؟

« وجنى الجنتين دان » .. قريب التناول ، لايتعب فى قطاف .

ولـكن هذا لايستقصى مافيهما من رفاهة ومتاع . فهناك بقية بهيجة لهذا المتاع :

« فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان » .. فهن عفيفات الشعور والنظر. لاتمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسسهن إنس ولاجن .

وهن ــ بعد هذا ــ ناضرات لامعات : « كأنهن الياقوت والمرجان » .

ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه ، وعبده كأنه يراه ، شاعرا أن ربه يراه ، فبلغ بذلك مرتبة الإحسان كما وصفها رســول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ فنالوا جــزاء الإحسان من عطاء الرحمان :

« هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ »

وفى معرض الإنعام والإحسان ، كان التعقيب يجىء فى موضعه بعد كل فقرة : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ »

والآن إلى الفريق الآخر صاحب الجنتين الأخريين .

« ومن دونهما جنتان » . . وأوصافهما أدنى من الجنتين السابقتين . فهما :

« مدهامتان » . . أى مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيهما من أعشاب .

« فيهما عينان نضاختان » . . تنضان بالماء . وهذا دون الجريان !

« فيهما فاكهة ونخل ورمان » . . وهناك : « من كل فاكهة زوجان »

« فيهن خيرات حسان » . . بسكون ياء خيرات أو بتشديدها على الوصف . وتأويله الخيرات بالسكون أو الخيرات بالتشديد فى الآية التالية :

« حور مقصورات فى الخيام » . . وتلق الخيام ظل البداوة . فهو نعيم بدوى أو يمثل مطالب أهل البداوة . . والحور مقصورات . أما حور الجنتين السابقتين فهن قاصرات الطرف .

« لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » . . فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك فى الصون والعفاف .

أما أهل هاتين الجنتين فنحن ننظرهما :

« متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » . . والرفرف الأبسطة وكأنها من صنع « عبقر » لتقريب وصفها إلى العرب ، وقد كانوا ينسبون كل عجيب إلى وادى الجن : عبقر ! ولكن المتكآت هناك بطائنها من إستبرق . وهناك جنى الجنتين دان فهما مرتبتان مختلفتان!

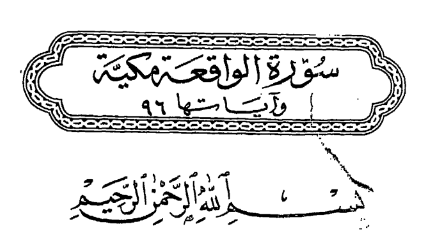
وهنا كذلك كان التعقيب بعد كل صفة للجنتين ونعيمهما : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

***

وفى ختام السورة التى استعرضت آلاء الله فى الكون ، وآلاءه فى الخلق ، وآلاءه فى الآخرة . يجىء الإيقاع الأخير ، تسبيحا باسم الجليل الكريم ، الذى يفنى كل حى ، ويبقى وجهه الكريم .

« تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » . .

أنسب ختام لسورة الرحمان . . .



« إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ * وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا : سَلَامًا سَلَامًا .

« وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ .

« وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ *

لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ : أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ؟ * قُلْ : إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ .

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ! * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ !

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ، فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ، فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ .

« أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ؟ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ؟ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

« أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ؟ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ؟ * فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ

مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ !

« فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ .

« إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » . .

الواقعة .. اسم للسورة وبيان لموضوعها معاً. فالقضية الأولى التى تعالجها هذه السورة المكية هى قضية النشأة الآخرة ، ردا على قولة الشاكين فيها ، المشركين بالله ، المكذبين بالقرآن : « أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » ..

ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة. وصفها بصفتها التى تنهى كل قول ، وتقطع كل شك ، وتشعر بالجزم فى هذا الأمر .. الواقعة .. « إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » .. وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن كل يوم ، حيث تتبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض ، فى ظل الهول الذى يبدل الأرض غير الأرض ، كما يبدل القيم غير القيم سواء: « خافضة رافعة .. إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا . وكنتم أزواجا ثلاثة . . . الخ » .

ثم تفصل السورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة : السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصفا مفصلا أوفى تفصيل، يوقع فى الحس أن هذا أمر كائن واقع ، لا مجال للشك فيه ، وهذه أدق تفصيلاته معروضة للعيان . حتى يرى المكذبون رأى العين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الأليم الذى هم فيه : «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون : أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون » .. وكأن العذاب هو الحاضر والدنيا هى الماضى الذى يذكر للترذيل والتقبيح. ترذيل حالهم فى الدنيا وتقبيح ما كانوا عليه من تكذيب!

وبهذا ينتهى الشوط الأول من السورة . ويبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها ، متوخيا توكيد قضية البعث التى هى موضوع السورة الأول ؛ بلمسات مؤثرة ، يأخذ مادتها وموضوعها مما يقع تحت حس البشر ، فى حدود المشاهدات التى لا تخلو منها تجربة إنسان ، أيا كانت بيئته ، ودرجة معرفته وتجربته .

يعرض نشأتهم الأولى من منى يمنى . ويعرض موتهم ونشأة آخرين مثلهم من بعدهم . فى مجال التدليل على النشأة الأخرى ، التى لا تخرج فى طبيعتها ويسرها عن النشأة الأولى ، التى يعرفونها جميعا .

ويعرض صورة الحرث والزرع ، وهو إنشاء للحياة فى صورة من صورها . إنشاؤها بيد الله وقدرته . ولو شاء الله لم تنشأ ، ولو شاء لم تؤت ثمارها .

ويعرض صورة الماء العذب الذى تنشأ به الحياة كلها . وهو معلق بقدرة الله ينزله من السحائب . ولوشاء جعله ملحا أجاجا ، لاينبت حياة ، ولا يصلح لحياة .

وصورة النار التى يوقدون ، وأصلها الذى تنشأ منه . . الشجر . . وعند ذكر النار يلمس وجدانهم منذرا . ويذكرهم بنار الآخرة التى يشكون فيها .

وكلها صور من مألوفات حياتهم الواقعة ، يلمس بها قلوبهم ، ولا يكلفهم فيها إلا اليقظة ليد الله وهى تنشئها وتعمل فيها .

كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذى يحدثهم عن «الواقعة» فيشكون فى وعيده . فيلوح بالقسم بمواقع النجوم ، ويعظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه تنزيل من رب العالمين .

ثم يواجههم فى النهاية بمشهد الاحتضار . فى لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم ، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر ؛ ويقف الجميع مكتوفى الأيدى عاجزين ، لا يملكون له شيئا ، ولا يدرون ما يجرى حوله ، ولا ما يجرى فى كيانه . ويخلص أمره كله لله ، قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئا عما يرى ولا أن يشير !

ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق ، وتسبيح الله الخالق : «إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » . . فيلتئم المطلع والختام أكمل التئام . .

* * *

« إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا . . . » .

هذا المطلع واضح فيه التهويل فى عرض هذا الحدث الهائل . وهو يتبع أسلوبا خاصا يلحظ فيه هذا المعنى ، ويتناسق مع مدلولات العبارة . فمرتين يبدأ بإذا الشرطية يذكر شرطها ولا يذكر جوابها . « إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة » .. ولا يقول: ماذا يكون إذا وقعت الواقعة وقعة صادقة ليس لهـا كاذبة ، وهى خافضة رافعة . ولـكن يبدأ حديثا جديدا : « إذا رجت الأرض رجا. وبست الجبال بسا . فـكانت هباء منبثا . »..ومرة أخرى لايقول : ماذا يـكون إذا كان هذا الهول العظيم . . فـكأنما هذا الهول كله مقدمة ، لا يذكر نتائجها، لأن نتائجها أهول من أن يحيط بها اللفظ ، أو تعبر عنها العبارة !

هذا الأسلوب الخاص يتناسب مع الصورة المروّعة المفزّعة التى يرسمها هـذا المطلع بذاته . فالواقعة بمعناها وبجرس اللفظ ذاته ــ بما فيه من مدّ ثم سكون ــ تلقى فى الحس كأنما هى ثقل ضخم ينقض من علٍ ثم يستقر ، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال ! « ليس لوقعتها كاذبة » . .

ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه ، كأنما يتوقع له الحس أرجحة ورجرجة يحدثها حين يقع . ويلبى السياق هذا التوقع فإذا هى : « خافضة رافعة » . . وإنها لتخفض أقدارا كانت رفيعة فى الأرض، وترفع أقدارا كانت خفيضة فى دار الفناء ، حيث تختل الاعتبارات والقيم ؛ ثم تستقيم فى ميزان الله .

ثم يتبدى الهول فى كيان هذه الأرض . الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هى ترج رجا ــ وهى حقيقة تذكر فى التعبير الذى يتسق فى الحس مع وقع الواقعة ــ ثم إذا الجبال الصلبة الراسية تتحول ــ تحت وقع الواقعة ــ إلى فتات يتطاير كالهباء . . « وبست الجبال بسا . فـكانت هباء منبثا » . . فمـا أهول هذا الهول الذى يرج الأرض رجا ، ويبس الجبـال بسا ، ويتركها هباء منبثا .وما أجهل الذين يتعرضون له وهم مكذبون بالآخرة ،مشركون بالله، وهذا أثره فى الأرض والجبال!

وهكذا تبدأ السورة بما يزلزل الـكيان البشرى ، ويهول الحس الإنسانى ، تجاه القضية التى ينـكرها المنـكرون ، ويكذب بها المشركون . وينتهى هذا المشهد الأول للواقعة لنشهد آثارها فى الخفض والرفع ، وفى أقدار البشر ومصائرهم الأخيرة :

« وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟ وأصحاب المشأمة . ما أصحاب المشأمة ؟ والسابقون السابقون . . . »

ونجد الناس هنا أصنافا ثلاثة ـ لاصنفين اثنين كما هو السائد فى مشاهد الاستعراض القرآنية ـ ويبدأ بالحديث عن أصحاب الميمنة ـ أو أصحاب اليمين ـ ولكنه لايفصل عنهم الحديث إنما يصفهم باستفهام عنهم للتهويل والتضخيم : « فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟ » . وكذلك يذكر أصحاب المشأمة بنفس الأسلوب . ثم يذكر الفريق الثالث . فريق السابقين . يذكرهم فيصفهم بوصفهم : « والسابقون السابقون » . . كأنما ليقول إنهم هم هم . وكفى . فهو مقام لايزيده الوصف شيئا !

ومن ثم يأخذ فى بيان قدرهم عند ربهم ، وتفصيل ما أعده من النعيم لهم ، وتعديد أنواعه التى يمكن أن يدركها حس المخاطبين ، وتتناوله معارفهم وتجاربهم :

« أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لايصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا : سلاما سلاما » . .

إنه يبدأ فى بيان هذا النعيم ، بالنعيم الأكبر . النعيم الأسنى . نعيم القرب من ربهم : « أولئك المقربون فى جنات النعيم » . . وجنات النعيم كلها لا تساوى ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب .

ومن ثم يقف عند هذه الدرجة ليقول من هم أصحابها . . إنهم: « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » . . فهم عدد محدود . وفريق منتقى . كثرتهم فى الأولين وقلتهم فى الآخرين . واختلفت الروايات فى من هم الأولون ومن هم الآخرون . فالقول الأول : أن الأولين هم السابقون إلى الإيمان ذوو الدرجة العالية فيه من الأمم السابقة قبل الإسلام . وأن الآخرين هم السابقون إلى الإسلام ذوو البلاء فيه . . والقول الثانى : أن الأولين والآخرين هم من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالأولون من صدرها ، والآخرون من متأخريها . وهذا القول الثانى رجحه ابن كثير . وروى فى ترجيحه للحسن وابن سيرين : قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن ابن محمد ابن الصباح ، حدثنا عفان ، حدثنا عبد الله ابن أبى بكر المزنى ، سمعت الحسن أتى على هذه الآية : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » . فقال : « أما السابقون فقد مضوا ولكن

اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين » . . ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا السرى ابن يحيى . قال : قرأ الحسن : « والسابقون السابقون . أولئك المقربون فى جنات النعيم . ثلة من الأولين » . . قال : ثلة ممن مضى من هذه الأمة » . . وحدثنا أبى ، حدثنا عبد العزيز ابن المغيرة المنقرى ، حدثنا أبو هلال ، عن محمد ابن سيرين ، أنه قال فى هذه الآية : « ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين » . . قال : كانوا يقولون ، أو يرجون ، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة .

وبعد بيان من هم يأخذ فى تفصيل مناعم الجنة التى أعدت لهم . وهى بطبيعة الحال المناعم التى فى طوقهم أن يتصوروها ويدركوها ؛ ووراءها مناعم أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهيأون لإدراكها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر !

« على سرر موضونة » . . مشبكة بالمعادن الثمينة . « متكئين عليها متقابلين » . . فى راحة وخلو بال من الهموم والمشاغل ، وفى طمأنينة على ما هم فيه من نعيم ، لا خوف من فوته ولا نفاده وفى إقبال بعضهم على بعض يتسامرون .. « يطوف عليهم ولدان مخلدون » .. لا يفعل فيهم الزمن، ولا تؤثر فى شبابهم وصباحتهم السن كأشباههم فى الأرض. يطوفون عليهم « بأكواب وأباريق وكأس من معين » . . من خمر صافية سائغة « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » . . فلا هم يفرقون عنها ولا هى تنفد من بين أيديهم . فكل شىء هنا للدوام والأمان . « وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون » . . فهنا لا شىء ممنوع، ولا شىء على غير ما يشتهى السعداء الخالدون . « وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » . . واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون، الذى لم يتعرض للمس والنظر ، فلم تثقبه يد ولم تخدشه عين ! وفى هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة فى هؤلاء الحور الواسعات العيون . وذلك كله : « جزاء بما كانوا يعملون » .. فهو مكافأة على عمل كان فى دار العمل . مكافأة يتحقق فيها الكمال الذى كان ينقص كل المناعم فى دار الفناء . ثم هم بعد ذلك كله يحيون فى هدوء وسكون ، وفى ترفع وتنزيه عن كل لغو فى الحديث ، وكل جدل وكل مؤاخذة : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا : سلاما سلاما » . . حياتهم كلها سلام . يرف عليها السلام . ويشيع فيها السلام . تسلم عليهم الملائكة فى ذلك الجو الناعم الآمن ؛ ويسلم بعضهم على بعض . ويبلغهم السلام من الرحمان . فالجو كله سلام سلام . .

فإذا انتهى الحديث عن ذلك الفريق السابق المختار ، بدأ الحديث عن الفريق الذى يليه :
فريق أصحاب اليمين :

« وأصحاب اليمين . ماأصحاب اليمين ؟ فى سدر مخضود ، وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة لامقطوعةولاممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا . لأصحاب اليمين . ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين » ..

وأصحاب اليمين هم أصحاب الميمنة الذين أشار إليهم تلك الإشارة المجملة فى أول السورة . ثم أخر تفصيل نعيمهم ، إلى موعده هنا بعد السابقين المقربين . وهو يعيد السؤال عنهم بتلك الصيغة التى تفيد التفخيم والتهويل : « ما أصحاب اليمين ؟ » . .

ولأصحابنا هؤلاء نعيم مادى محسوس ، يبدو فى أوصافه شىء من خشونة البداوة ، ويلبى هواتف أهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم !

إنهم « فى سدر مخضود » . . والسدر شجر النبق الشائك . ولكنه هنا مخضود شوكه ومنزوع . « وطلح منضود » . . والطلح شجر من شجر الحجاز من نوع العضاة فيه شوك . ولكنه هنا منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة . « وظل ممدود ، وماء مسكوب » . . وتلك جميعا من مراتع البدوى ومناعمه، كما يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه ! « وفاكهة كثيرة. لامقطوعة ولا ممنوعة » . . تركها مجملة شاملة بغير تفصيل بعد ماذكر الأنواع المعروفة لسكان البادية بالتعيين . « وفرش مرفوعة » . . وهى هنا لاموضونة ولاناعمة . وبحسبها أنها مرفوعة. وللرفع فى الحس معنيان . مادى ومعنوى يستدعى أحدهما الآخر ، ويلتقيان عند الارتفاع فى المكان والطهارة من الدنس . فالمرفوع عن الأرض أبعد عن نجسها . والمرفوع فى المعنى أبعد عن دنسها . ولهذا ينتقل السياق من الفرش المرفوعة إلى ذكر من فيها من الأزواج : « إنا أنشأناهن إنشاء » إما ابتداء وهن الحور . وإما استئنافا وهن الزوجات المبعوثات شواب : « فجعلناهن أبكارا » لم يمسسن « عربا » . . متحببات إلى أزواجهن « أترابا » متوافيات السن والشباب. « لأصحاب اليمين » . . مخصصات لهم . ليتسق ذلك مع «الفرش المرفوعة» . .

فأما أصحاب اليمين هؤلاء فهم « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » . . فهم أكثر عددا من السابقين المقربين . على الاعتبارين اللذين ذكرناهما فى معنى الأولين والآخرين .

وهنا يصل بنا السياق إلى أصحاب الشمال ــ وهم أصحاب المشأمة الذين سبقت الإشارة إليهم فى مطلع السورة :

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؟ فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم. وكانوا يقولون: أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أوآباؤنا الأولون ؟ قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين » ..

فلئن كان أصحاب اليمين « فى ظل ممدود وماء مسكوب » .. فأصحاب الشمال « فى سموم وحميم . وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم » .. فالهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوى الأجسام . والماء متناه فى الحرارة لا يُبرد ولا يُروى وهناك ظل ! ولكنه « ظل من يحموم » .. ظل الدخان اللافح الخانق .. إنه ظل للسخرية والتهكم . ظل « لا بارد ولا كريم » .. فهو ظل ساخن لا روح فيه ولا برد ؛ وهو كذلك كز لا يمنح وراده راحة ولا إنعاشا ! .. هذا الشظف كله جزاء وفاق : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » .. وما آلم الشظف للمترفين ! « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » .. والحنث الذنب . وهو هنا الشرك بالله . وفيه إلماع إلى الحنث بالعهد الذى أخذه الله على فطرة العباد أن يؤمنوا به ويوحدوه . « وكانوا يقولون : أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أوآباؤنا الأولون ؟ » كانوا . . هكذا يعبر القرآن ، كأنما الدنيا التى فيها المخاطبون قد طويت وانتهت فإذا هى ماض . والحاضر هو هذا المشهد وهذا العذاب ! ذلك أن الدنيا كلها ومضة . وهذا الحاضر هو العقبى والمآب .

وهنا يلتفت السياق إلى الدنيا فى أنسب الأوقات لهذه اللفتة ليرد على سؤالهم ذاك : « قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » .. هو هـذا اليوم الحاضر المعروض المشهود !

ثم يعود إلى ما ينتظر المكذبين . فيتم صورة العذاب الذى يلقاه المترفون :

« ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم » .. ولا يدرى أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به فى سورة أخرى من أن طلعها كرؤوس الشياطين . ورؤوس الشياطين لم يرها أحد ولكنها تلقى فى الحس ما تلقيه ! على أن لفظ « الزقوم » نفسه يصور بجرسه ملمسا خشنا شائكا مدببا يشوك الأكف ـ بله الحلوق ـ وذلك فى مقابل السدر المخضود والطلح المنضود ـ ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين ! فإنهم لآكلون منها

« فمالئون منها البطون » . . فالجوع طاغ والمحنة غالبة . . وإن الشوك الخشن ليدفع إلى الماء لتسليك الحلوق ورى البطون ! وإنهم لشاربون « فشاربون عليه من الحميم » . . الساخن الذى لايبرد غلة ولا يروى ظمأ . « فشاربون شرب الهيم » . . وهى الإبل المصابة بداء الاستسقاء لاتكاد ترتوى من الماء ! « هذا نزلهم يوم الدين » . . والنزل للراحة والاستقرار . ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذى لا راحة فيه ولا قرار ! هذا نزلهم فى اليوم الذى كانوا يشكون فيه ، ويتساءلون عنه ، ولا يصدقون خبر القرآن به . كما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده بذلك اليوم المشهود . .

بهذا ينتهى استعراض المصائر والأقدار ، يوم تقع الواقعة : الخافضة الرافعة . وينتهى كذلك الشوط الأول من السورة .

* * *

فأما الشوط الثانى فى السورة فيستهدف بناء العقيدة بكليتها ، وإن كان التوكيد البارز فيه على قضية البعث والنشأة الأخرى . وفيه تتجلى طريقة القرآن فى مخاطبة الفطرة البشرية ، وفى تناول الدلائل الإيمانية ، وفى التلطف إلى النفوس فى بساطة ويسر ، وهو يتناول أكبر الحقائق فى صورها القريبة الميسورة . .

إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة ، قضايا كونية كبرى ؛ يكشف فيها عن النواميس الإلهية فى الوجود ؛ وينشىء بها عقيدة ضخمة شاملة وتصورا كاملا لهذا الوجود. كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير ؛ وحياة للأرواح والقلوب ، ويقظة فى المشاعر والحواس . يقظة لظواهر هذا الوجود التى تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها ؛ ويقظة لأنفسهم وما يجرى من العجائب والخوارق فيها !

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة . كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيدا عن أنفسهم ، ولا عن مألوف حياتهم ، ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم . . إنه لا يبعد لهم فى فلسفات معقدة ، أو مشكلات عقلية عويصة ، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد . . لكى ينشىء فى نفوسهم عقيدة ، وتصورا للكون والحياة قائما على هذه العقيدة .

إن أنفسهم من صنع الله ؛ وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته . والمعجزة كامنة فى كل

ماتبدعه يده . وهذا القرآن قرآنه . ومن ثم يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة فى الكون من حولهم . يأخذهم إلى هـذه الخوارق المألوفة لهم ، التى يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول ألفتهم لها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها ؛ فتطلع على السر الهائل المكنون فيها . سر القدرة المبدعة ، وسر الوحدانية المفردة ، وسر الناموس الأزلى الذى يعمل فى كيانهم هم أنفسهم كما يعمل فى الكون من حولهم ؛ والذى يحمل دلائل الإيمان ، وبراهين العقيدة ، فيبثها فى كيانهم ، أو يوقظها فى فطرتهم بتعبير أدق .

وعلى هذا المنهج يسير فى هذا الشوط من السورة ؛ وهو يعرض عليهم آيات القدرة المبدعة فى خلقهم هم أنفسهم . وفى زرعهم الذى تزاوله أيديهم . وفى الماء الذى يشربون . وفى النار التى يوقدون ــ وهى أبسط مايقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم ــ كذلك يصور لهم لحظة النهاية . نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة فى العالم الآخر . اللحظة التى يواجهها كل أحد ، والتى تنتهى عندها كل حيلة ، والتى تقف الأحياء وجهالوجه أمام القدرة المطلقة المتصرفة وقفة فاصلة ، لامحاولة فيها ولامجال ! حيث تسقط جميع الأقنعة ، وتبطل جميع التعلات .

إن طريقة القرآن فى مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره . . إنه المصدر الذى صدر منـه الكون . فطريقة بنائه هى طريقة بناء الكون . فمن أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال ، وأضخم الخلائق .. الذرة يظن أنها مادة بناء الكون ، والخلية يظن أنها مادة بناء الحياة .. والذرة على صغرها معجزة فى ذاتها . والخلية على ضآلتها آية فى ذاتها . . وهنا فى القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كونى .. المشاهـدات التى تدخل فى تجارب كل إنسان : النسل . والزرع . والماء . والنار . والموت . . أى إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات فى تجاربه ؟ أى ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية ، ونشأة نبتة . ومسقط ماء . وموقد نار . ولحظة وفاة ؟ .. من هذه المشاهدات التى رآها كل إنسان ينشىء القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان فى كل بيئة .. وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة هى بذاتها أضخم الحقائق الكونية ، وأعظم الأسرار الربانية ــ بالإضافة إلى الإشارة إلى مواقع النجوم ــ فهى فى بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان . وهى فى حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان :

مواقع النجوم تعنى هندسة الكون .

نشأة الحياة الإنسانية .. وهى سر الأسرار .

نشأة الحياة النباتية .. وهى كالحياة الحيوانية معجزة المعجزات .

والمـاء .. أصل الحياة .

والنار .. المعجزة التى صنعت الحضارة الإنسانية .

هذه الطريقة فى تناول الأشياء ، وبناء العقيدة والتفكير ، ليست طريقة البشر . فالبشر حين يخوضون فى هذه المجالات لايلتفتون إلى هذه المواد الأولية التى هى بذاتها المواد الكونية. وإذا التفتوا إليها لم يتناولوها بهذا اليسر وبهذه البساطة . بل يحاولون وضع المسألة فى قالب فلسفى تجريدى معقد ، لايصلح إلا لخطاب طبقة خاصة من الناس !

أما الله فطريقته هى هذه . . تناول المواد الأولية التى هى بذاتها المواد الكونية . وبناء العقيدة بها فى يسر وسهولة . تماما كما يصنع ـ سبحانه ـ فى تناول المواد الأولية التى هى مواد كونية ويصنع منها الكون ..

هذا من ذاك . وعلامة الصنعة واحدة ، واضحة هنا وهناك !

***

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ! » . .

إن هـذا الأمر أمر النشأة الأولى ونهايتها . أمر الخلق وأمر الموت . إنه أمـر منظور ومألوف وواقع فى حياة الناس . فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشرى أو يجادل فيه : « نحـن خلقناكم فلولا تصدقون ! » . .

« أفرأيتم ماتمنون ؟ أأنتم تخلقونه ؟ أم نحن الخالقون ؟ » . .

إن دور البشر فى أمر هذا الخلق لايزيد على أن يودع الرجل ما يُمنى رحمَ امرأة . ثم ينقطع عمله وعملها . وتأخذ يد القدرة فى العمل وحدها فى هذا المـاء المهين . تعمل وحدها فى خلقه وتنميته ، وبناء هيكله ، ونفخ الروح فيه . ومنذ اللحظة الأولى وفى كل لحظة تالية تتم المعجزة ، وتقع الخارقة التى لا يصنعها إلا الله . والتى لايدرى البشر كنهها وطبيعتها ؛ كما لايعرفون كيف تقع . بله أن يشاركوا فيها !

وهـذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان . وهذا يكفى لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها . ولـكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تمنى ، إلى أن تصير خلقا ، قصة أغرب من الخيال . قصة لا يصدقها العقل لولا أنها تقع فعلا ، ويشهد وقوعها كل إنسان !

هذه الخلية الواحدة تبدأ فى الانقسام والتكاثر ، فإذا هى بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا . كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن خصائص المجموعات الأخرى ؛ لأنها مكلفة أن تنشىء جانبا خاصا من المخلوق البشرى ! فهذه خلايا عظام . وهـذه خلايا عضلات . وهذه خلايا جلد . وهذه خلايا أعصاب . . ثم . . هذه خلايا لعمل عين . وهذه خلايا لعمل لسان . وهذه خلايا لعمل أذن . وهذه خلايا لعمل غدد . . وهى أكثر تخصصا من المجموعات السابقة . . وكل منها تعرف مكان عملها ، فلا تخطىء خلايا العين مثلا ، فتطلع فى البطن أو فى القدم . مع أنها لو أخذت أخذا صناعيا فزرعت فى البطن مثلا صنعت هنالك عينا ! ولـكنها هى بإلهامها لا تخطىء فتذهب إلى البطن لصنع عين هناك ! ولا تذهب خلايا الأذن إلى القدم لتصنع أذنا هناك ! . . إنها كلها تعمل وتنشىء هذا الـكيان البشرى فى أحسن تقويم تحت عين الخالق ، حيث لا عمل للإنسان فى هذا المجال (١)

هذه هى البداية . أما النهاية فلا تقل عنها إعجازا ولا غرابة . وإن كانت مثلها من مشاهدات البشر المألوفة :

« نحن قدرنا بينـكم الموت ، وما نحن بمسبوقين » . .

هذا الموت الذى ينتهى إليه كل حى . . ما هو ؟ وكيف يقع ؟ وأى سلطان له لا يقاوم ؟

إنه قدر الله . . ومن ثم لا يفلت منه أحد ، ولا يسبقه فيفوته أحد . . وهو حلقة فى سلسلة النشأة التى لا بد أن تتكامل . .

« على أن نبدل أمثالـكم » . .

لعمارة الأرض والخلافة فيها بعدكم . والله الذى قدر الموت هو الذى قدر الحياة . قدر الموت على أن ينشىء أمثال من يموتون ، حتى يأتى الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا . . فإذا انتهت عند الأجل الذى سماه كانت النشأة الأخرى :

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » فى سورة النجم بهذا الجزء

« وننشئكم فيما لا تعلمون » ..

فى ذلك العالم المغيب المجهول ، الذى لا يدرى عـنه البشر إلا ما يخبرهم به الله . وعندئذ تبلغ النشأة تمامها ، وتصل القافلة إلى مقرها .

هـذه هى النشأة الآخرة .. « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ! » .. فهى قريب من قريب . وليس فيها من غريب .

بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى والنشأة الآخرة . وبهذه البساطة وهذه السهولة يقف الفطرة أمام المنطق الذى تعرفه ، ولا تملك أن تجادل فيه . لأنه مأخوذ من بديهياتها هى ، ومن مشاهدات البشر فى حياتهم القريبة . بلا تعقيد . ولا تجريد . ولا فلسفة تكد الأذهان ، ولا تبلغ إلى الوجدان ..

إنها طريقة الله . مبدع الكون ، وخالق الإنسان ، ومنزل القرآن . . .

***

ومرة أخرى فى بساطة ويسر يأخذ بقلوبهم إلى أمر مألوف لهم ، مكرر فى مشاهداتهم ، ليريهم يد الله فيه ؛ ويطلعهم على المعجزة التى تقع بين أيديهم ، وعلى مرأى من عيونهم ، وهم عنها غافلون :

« أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما ، فظلتم تفكهون : إنا لمغرمون . بل نحن محرومون » ..

هذا الزرع الذى ينبت بين أيديهم وينمو ويؤتى ثماره . مادورهم فيه؟ إنهم يحرثون ويلقون الحب والبذور التى صنعها الله. ثم ينتهى دورهم وتأخذ يد القدرة فى عملها المعجز الخارق العجيب.

تأخذ الحبة أو البذرة طريقها لإعادة نوعها . تبدؤه وتسير فيه سيرة العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق ! الذى لا يخطىء مرة كما يخطىء الإنسان فى عمله ، ولا ينحرف عن طريقه ، ولا يضل الهدف المرسوم ! إن يد القدرة هى التى تتولى خطاها على طول الطريق .. فى الرحلة العجيبة . الرحلة التى ما كان العقل ليصدقها ، وما كان الخيال ليتصورها ، لولا أنها حدثت وتحدث ويراها كل إنسان فى صورة من الصور ، ونوع من الأنواع .. وإلا فأى عقل كان يصدق ، وأى خيال كان يتصور أن حبة القمح مثلا يكمن فيها هذا العود وهذا الورق ، وهذه السنبلة ، وهذا الحب الكثير ؟ ! أو أن النواة تكمن فيها نخلة كاملة سامقة بكل ما تحتويه ؟ !

أى عقل كان يمكن أن يتطاول به الخيال إلى تصور هذه العجيبة . لولاأنه يراها تقع بين يديه صباح مساء؟ ولولاأن هذه القصة تتكرر على مرأى ومسمع من جميع الناس ؟ وأى إنسان يمكنه أن يدعى أنه صنع شيئا فى هذه العجيبة سوى الحرث وإلقاء البذور التى صنعها الله ؟

ثم يقول الناس : زرعنا !! وهم لم يتجاوزوا الحرث وإلقاء البذور . أما القصة العجيبة التى تمثلها كل حبة وكل بذرة.وأما الخارقة التى تنبت من قلبها وتنمو وترتفع فكلهامن صنع الخالق الزارع . ولوشاء لم تبدأ رحلتها . ولوشاءلم تتم قصتها . ولوشاءلجعلها حطاماقبلأن تؤتى ثمارها . وهى بمشيئته تقطع رحلتها من البدء إلى الختام !

ولووقع هذا لظل الناس يلونون الحديث وينوعونه يقولون : « إنا لمغرمون » : غارمون « بل نحن محرومون » .. ولكن فضل الله يمنحهم الثمر،ويسمح للنبتة أن تتم دورتها، وتكمل رحلتها ، وهى ذاتها الرحلة التى تقوم بها الخلية التى تمنى .. وهى صورة من صور الحياة التى تنشئها القدرة وترعاها .

فماذا فى النشأة الأخرى من غرابة . وهذه هى النشأة الأولى ؟ ..

* * *

« أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لونشاء جعلناه أجاجا . فلولا تشكرون » !

وهذا الماء أصل الحياة ، وعنصرها الذى لاتنشأ إلابه كما قدر الله . مادور الإنسان فيه ؟ دوره أنه يشربه . أماالذى أنشأه من عناصره ، وأما الذى أنزله من سحائبه ، فهو الله سبحانه. وهو الذى قدر أن يكون عذبا فكان «لونشاء جعلناه أجاجا» . مالحا لايستساغ ، ولاينشئ حياة . فهلا يشكرون فضل الله الذى أجرى مشيئته بما كان ؟

والمخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان الماء النازل من السحائب ، فى صورته المباشرة ، مادة حياتهم ، وموضع احتفالهم ، والحديث الذى يهز نفوسهم ، وقد خلدته قصائدهم وأشعارهم .. ولم تنقص قيمةالماء بتقدم الإنسان الحضارى ؛ بل لعلها تضاعفت.والذين يشتغلون بالعلم ويحاولون تفسير نشأة الماء الأولى أشد شعورا بقيمة هذا الحدث من سواهم . فهو مادة اهتمام للبدائى فى الصحراء ، وللعالم المشتغل بالأبحاث سواء ..

* * *

« أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناهاتذكرة ومتاعا للمقوين » . .

ولقد كان كشف الإنسان للنار حادثا عظيما فى حياته . ربما كان أعظم حادث بـدأت منه حضارته . ولـكنها أصبحت أمرا مألوفا لايثير الاهتمام . . والإنسان يورى النار : أى يوقدها . ولـكن من الذى أنشأ وقودها ؟ من الذى أنشأ الشجر الذى توقد به النار ؟ لقد مر حديث الزرع . والشجر من هـذا الزرع . . على أن هناك لفتة أخرى فى ذكر « شجرتها » . فمن احتكاك فرع من شجرة بفرع آخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون نارهم . على الطريقة البدائية التى لاتزال مستعملة فى البيئات البدائية حتى الآن . فالأمر أظهر وأقرب إلى تجاربهم المعروفة . أما معجزة النار وسرها عند العلماء الباحثين فهو مجـال للبحث والنظر والاهتمام . وبمناسبة ذكر النار يلمع السياق إلى نار الآخرة . : « نحن جعلناها تذكرة » تذكر بالنـار الأخرى .. كما جعلناها « متاعا للمقوين » . . أى للمسافرين . وكان لهذه الإشارةوقعها العميق فى نفوس المخاطبين ، لمـا تمثله فى واقع حياتهم مـن مـداول حى حاضر فى تجاربهم وواقعهم .

* * *

وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد من عرض هذه الحقائق والأسرار ، الناطقة بدلائل الإيمان . الميسرة للقلوب والأذهان . يلتفت إلى الحقيقة التى تنتهى إليها هذه الحقائق . حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته . وهى حقيقة تواجه الفطرة مواجهة ذات قوة وسلطان . فيهيب بالرسول ــ صـلى الله عليـه وسـلم ــ أن يحيي هـذه الحقيقة ويؤدى حقها ؛ ويلمس القلوب بها فى حينها :

« فسبح باسم ربك العظيم » . .

* * *

ثم يلتفت التفاتة أخرى إلى المكذبين بهذا القرآن ؛ فيربط بينه وبين هذا الـكون فى قسم عظيم من رب العالمين :

« فلاأقسم بمواقع النجوم ــ وإنه لقسم لوتعلمون عظيم ــ إنه لقرآن كريم فى كتابمكنون لايمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين » . .

ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلاالقليل ، الذى يدركونه بعيونهم

المجردة . ومن ثم قال لهم : « وإنه لقسم ـ لو تعلمون ـ عظيم » .. فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به ، نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون . وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم ..

وهذا القليل الذى وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة ، المحدودة المناظير ، يقول لنا : إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التى لا تحصى فى الفضاء الهائل الذى لا نعرف له حدودا . مجموعة واحدة ـ هى المجرة التى تنتسب إليها أسرتنا الشمسية ـ تبلغ ألف مليون نجم !

« ويقول الفلكيون إن من هـذه النجوم والكواكب التى تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هـذه كلها تسبح فى الفلك الغامض ؛ ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب فى البحر الأبيض المتوسط بآخر فى المحيط الهادى ، يسيران فى اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد ، وبعيد جدا . إن لم يكن مستحيلا [1] »

وكل نجم فى موقعه المتباعد عن موقع إخوته ، قد وضع هناك بحكمة وتقدير . وهو منسق فى آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب ، لتتوازن هذه الخلائق كلها فى هذا الفضاء الهائل.

فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم ، وهو أكبر كثيرا جدا مما كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أول مرة. وهو فى الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكلية لعظة مواقع النجوم!

« فلا أقسم بمواقع النجوم » . . فالأمر أوضح وأجلى من أن يحتاج إلى قسم .. « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .. وهذا التلويح بالقسم والعدول عنه أسلوب ذو تأثير فى تقرير الحقيقة التى لا تحتاج إلى القسم لأنها ثابتة واضحة . . « إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين » ..

إنه لقرآن كريم . وليس كما تدعون قول كاهن ، ولا قول مجنون ، ولا مفترى على الله . من أساطير الأولين . ولا تنزلت به الشياطين !... إلى آخر هذه الأقاويل . إنما هو قرآن كريم . كريم بمصدره ، وكريم بذاته ، وكريم باتجاهاته .

« فى كتاب مكنون » .. مصون .. وتفسير ذلك فى قوله تعالى بعدها : « لا يمسه

(١) كتاب : الله والعلم الحديث ص٣٣

إلا المطهرون » .. فقد زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به . فهذا نفى لهذا الزعم.فالشيطان لايمس هـذا الـكتاب المكنون فى علم الله وحفظه . إنمـا تنزل به الملائكة المطهرون .. وهذا الوجه هو أظهر الوجوه فى معنى « لايمسه إلاالمطهرون » . فلا هنا نافية لوقوع الفعل .وليست ناهية . وفى الأرض يمس هذا القرآن الطاهر والنجس . والمؤمن والـكافر ، فلايتحقق النفى على هذا الوجه . إنما يتحقق بصرف المعنى إلى تلك الملابسة . ملابسة قولهم : تنزلت به الشياطين. ونفى هذا الزعم إذلايمسه فى كتابه السماوى المكنون إلاالمطهرون ..

ومما يؤيد هـذا الاتجاه قوله تعالى بعـد هـذا : « تنزيل من رب العالمين » .. لاتنزيل من الشياطين !

وقد روى حديثان يقرران معنى آخر . وهو أن لايمس القرآن إلاطاهر . . ولـكن ابن كثير قال عنهما : « وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهرى وغيره . ومثل هذا لاينبغى الأخذ به . وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو بن حزم وعبد الله ابن عمر وعثمان ابن أبى العاص . وفى إسناد كل منهما نظر والله اعلم » .

* * *

ثم يأتى الإيقاع الأخير فى السورة . . لحظة الموت .. اللمسة التى ترجف لها الأوصال . واللحظة التى تنهى كل جدال . واللحظة التى يقف فيها الحى بين نهاية طريق وبداية طريق ، حيث لايملك الرجوع ولايملك النكوص :

« أفبهذا الحديث أنتم مدهنون؟وتجعلون رزقكم أنـكم تـكذبون. فلولاإذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منـكم ولـكن لاتبصرون.فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين » ..

أفأنتم شاكون فى هـذا الحديث الذى يقال لـكم عن النشأة الآخرة ؟ مكذبون بالقرآن ومايقصه عليكم من شأن الآخرة ، ومايقرره لـكم من أمور العقيدة ؟ « وتجعلون رزقـكم أنكم تكذبون » .. فإذا التـكذيب هو رزقـكم الذى تحصلون عليه فى حياتـكم وتدخرونه لآخرتكم؟ وماأسوأه من رزق !

فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم ، وتقفون فى مفرق الطريق المجهول ؟

ثم يصور الموقف التصوير القرآنى الموحى، الذى يرسم ظلال الموقف كلها فى لمسات سريعة ناطقة بكل مافيه ، وبكل ماوراءه ، وبكل مايوحيه .

« فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون » ..

لنكاد نسمع صوت الحشرجة ، ونبصر تقبض الملامح، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله: « فلولا إذا بلغت الحلقوم » .. كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس فى ملامح الحاضرين من خلال قوله : « وأنتم حينئذ تنظرون » ..

هنا . فى هذه اللحظة . وقد فرغت الروح من أمر الدنيا . وخلفت وراءها الأرض ومافيها . وهى تستقبل عالما لاعهد لها به ، ولاتملك من أمره شيئا إلا ماادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أوشر .

هنا . وهى ترى ولاتملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عمن حولها وماحولها . الجسد هو الذى يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون مايجرى ولايملكون من الأمر شيئا .

هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر ، وينتهى مجال البشر .

هنا يعرفون ـ ولايجادلون ـ أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون .

هنا يسدل الستار دون الرؤية . ودون المعرفة . ودون الحركة .

هنا تتفرد القدرة الإلهية ، والعلم الإلهى . ويخلص الأمر كله لله بلاشائبة ولاشبهة ولاجدال ولامحال :

« ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون » !

وهنا يجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره ـ سبحانه وتعالى ـ وهو حاضر فى كل وقت. ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التى يغفل عنها البشر . فإذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله . فوق مافيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع .

وفى ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الآسية الآسفة يجىء التحدى الذى يقطع كل قول وينهى كل جدال :

« فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين ! »

فلو كان الأمر كما تقولون: إنه لاحساب ولاجزاء . فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولامحاسبين.

فدونكم إذن فلترجعوها ــ وقد بلغت الحلقوم ــ لتردوها عما هى ذاهبة إليه من حساب وجزاء. وأنتم حولها تنظرون . وهى ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون !

هنا تسقط كل تعلة . وتنقطع كل حجة . ويبطل كل محال . وينتهى كل جدال . ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشرى ، فلا يصمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل !

* * *

ثم يمضى السياق فى بيان مصير هذه الروح الذى يتراءى لها من بعيد حين تبلغ الحلقوم، وتستدبر الحياة الفانية ، وتستقبل الحياة الباقية .وتمضى إلى الدينونة التى يكذب بها المكذبون:

« فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم » ..

وقد مرت بنا فى أول السورة صور من نعيم المقربين . فالروح هنا ترى علائم هذا النعيم الذى ينتظرها : روح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة. وتلقى ظلال الراحة الحلوة ، والنعيم اللين ، والأنس الكريم .

« وأما إن كان من أصحاب اليمين » .. فيلتفت بالخطاب إليه . . يبلغه سلام إخوانه من أصحاب اليمين . وما أندى السلام ساعتئذ وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ! فيطمئن باله ويشعر بالأنس فى الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين .

« وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم » . . وما أسوأه نزلا ومثوى ذلك الحميم الساخن . وما أشده عذابا ذلك الجحيم ، يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين !

* * *

والآن وقد بلغ الموقف ذروته تجىء الخاتمة فى إيقاع عميق رزين :

« إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » ..

فتلتقى رجاحة اليقين وثقله فى ميزان الحق ، بالواقعة التى بدأت بها السورة . وتختم بما يوحيه هــذا اليقين الثابت الجازم من اتجاه إلى الله بالتسبيح والتعظيم . .

سورة الحديد مدنية
وآياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

« آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَالَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ؟ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَالَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

« مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ؟ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا . ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا : انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ . قِيلَ : ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا . فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَتَرَبَّصْتُمْ ، وَارْتَبْتُمْ ، وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ، حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ ، وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كى تحقق فى ذاتها حقيقة إيمانها . هذه الحقيقة التى تخلص بها النفوس لدعوة الله ؛ فلا تضن عليها بشىء ، ولا تحتجز دونها شيئا .. لا الأرواح ولا الأموال ؛ ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور . . وهى الحقيقة التى تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض . موازينها هى موازين الله ، والقيم التى تعتز بها وتسابق إليها هى القيم التى تثقل فى هذه الموازين . كما أنها هى الحقيقة التى تشعر القلوب بحقيقة الله ، فتخشع لذكره ، وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة تدعو السورة الجماعة الإسلامية إلى البذل فى سبيل الله . بذل النفس وبذل المال : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ، وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراث السماوات والأرض . لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . وكلا وعد الله الحسنى . والله بما تعملون خبير » .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة كذلك تدعو الجماعة الإسلامية إلى الخشوع لذكر الله وللحق الذى أنزله الله ليجىء البذل ثمرة لهذا الخشوع المنبعث من الحقيقة الإيمانية الأولى : « ألم

يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » . .

وكذلك تضع قيم الدنيا وقيم الآخرة فى ميزان الحق ؛ وتدعو الجماعة الإسلامية لاختيار الكفةالراجحة ، والسباق إلى القيمة الباقية : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما . وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . .

وظاهر من سياق السورة — إلى جانب عمومية الدعوة الدائمة إلى تلك الحقيقة — أنها كانت تعالج كذلك حالة واقعة فى الجماعة الإسلامية عند نزول هذه السورة فى المجتمع المدنى فى فترة تمتد من العام الرابع الهجرى إلى ما بعد فتح مكة .

فإلى جانب السابقين من المهاجرين والأنصار ، الذين ضربوا أروع مثال عرفته البشرية ، فى تحقيق حقيقة الإيمان فى نفوسهم ، وفى البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم ، فى خلوص نادر ، وتجرد كامل ، وانطلاق من أوهاق الأرض وجواذب الغريزة ومعوقات الطريق إلى الله . . .

إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة ، كانت هناك — فى الجماعة الإسلامية — فئة أخرى ليست فى هذا المستوى الإيمانى الخالص الرفيع — وبخاصة بعد الفتح عند ما ظهر الإسلام ، ودخل فيه الناس أفواجا ، وكان من بينهم من لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الكبيرة ، ولم يعيشوا بها ولها كما عاشت تلك الفئة السابقة الخالصة المخلصة لله .

هؤلاء المسلمون من الفئة الأخرى كان يصعب عليهم البذل فى سبيل الله ؛ وتشق عليهم تكاليف العقيدة فى النفس والمال ؛ وتزدهيهم قيم الحياة الدنيا وزينتها ؛ فلا يستطيعون الخلاص من دعائها وإغرائها .

وهؤلاء — بصفة خاصة — هم الذين تهتف بهم هذه السورة تلك الهتافات الموحية التى أسلفنا نماذج منها، لتخلص أرواحهم من تلك الأوهاق والجواذب، وترفعها إلى مستوى الحقيقة الإيمانية الكبرى ، التى تصغر معها كل قيم الأرض ، وتذوب فى حرارتها كل عوائقها !

كذلك كانت هنالك طائفة أخرى ـ غير هؤلاء وأولئك ـ هى طائفة المنافقين ، مختلطة غير متميزة. وبخاصة حين ظهرت غلبة الإسلام ، واضطر المنافقون إلى التخفى والانزواء ؛ مع بقاء قلوبهم مشوبة غير خالصة ولا مخلصة يتربصون الفرص وتجرفهم الفتن . وهؤلاء تصور السورة مصيرهم يوم يميزون ويعزلون عن المؤمنين : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشرا كم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم .قيل:ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم . وبئس المصير » . .

وهذا إلى جانب من بقى فى الجزيرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى . والسورة تشير إلى شىء من أحوالهم ومواقفهم السابقة والحاضرة فى ذلك الأوان ؛ كالإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونوا « كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » . . وهى إشارة إلى اليهود خاصة فى الغالب . . وكالإشارة إلى النصارى قرب نهاية السورة فى قوله : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . فما رعوها حق رعايتها. فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون » . .

* **

ولما كان مدار السورة على تحقيق حقيقة الإيمان فى القلب ؛ وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى ، ومن خلوص وتجرد ، ومن بذل وتضحية ، فقد سارت فى إقرار هذه الحقيقة فى النفوس التى كانت تواجهها ـ والتى توجد فى كل مجتمع إسلامى ـ على نسق مؤثر ، أشبه ما يكون بنسق السور المكية، حافل بالمؤثرات ذات الإيقاع الآسر للقلب والحس والمشاعر!

وكان مطلعها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير ؛ تواجه القلب البشرى بمجموعة من صفات الله سبحانه .فيها تعريف به مع الإيحاء الآسر بالخلوص له ، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة ، وسيطرتها المطلقة على الوجود ، ورجعة كل شىء إليها فى نهاية المطاف ، مع نفاذ علمها إلى خبايا

القلوب وذوات الصدور ، واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح : « سبح لله مافى السماوات والأرض . وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » ..

وهذا المطلع بذاته وبإيقاعاته كاف وحده لهز القلوب هزا ، ويوقع فيها الرهبة والخشية والارتعاش ، كما يوقع فيها الرغبة الحية فى الخلوص لله والالتجاء إليه ، والتجرد من العوائق والأثقال المعوقة عن تلبية الهتاف إلى الخلاص من الشح بالأنفس والأموال . ولكن سياق السورة تضمن كثيرا من المؤثرات تتخلل ذلك الهتاف وتؤكده فى مواضع شتى . كتلك الصورة الوضيئة للمؤمنين والمؤمنات « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .. وتلك الصورة التى تقرر ضآلة الحياة الدنيا وقيمها إلى جانب قيم الآخرة ومايتم فيها من الأمور الكبار .

كذلك جاءت لمسة أخرى ترد القلوب إلى حقيقة القدر المسيطرة على الوجود : « ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولافى أنفسكم إلافى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكى لاتأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم . والله لايحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » .. كى تستقر النفس وتطمئن لما يصيبها من خير أو شر ، وهى فى طريقها إلى الله . فلاتطير جزعا ، ولاتبطر فرحا ، وهى تواجه الضراء والسراء . ولا تشرك بالله سببا ولاظرفا ولاحادثا . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومرد الأمر كله فى النهاية إلى الله .

* * *

وقد سار سياق السورة فى علاج موضوعها فى شوطين اثنين أثبتنا أولهما فى صدر هذا التقديم . وجاءت فقرات كثيرة من الشوط الثانى فى خلاله . وهما مترابطان مطردان . فنكتفى بهذا القدر ، لنسير مع سياق السورة بالتفصيل ..

* * *

« سبح لله مافى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » ..

هذا المطلع الموحى المختار . وماحشد فيه من خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة المبدعة لكل شىء ، المحيطة بكل شىء ، المهيمنة على كل شىء ، العليمة بكل شىء . وماتعرضه من إبداع اليد القادرة وهى تجول فى محيط السماوات والأرض ، وتتلطف إلى خبايا الصدور وطوايا القلوب ، وتشرف من عل على الوجود ومافيه ومن فيه ..

هذا المطلع الموحى المختار يتناول القلوب ، فيهزها هزا ، ويأخذها أخذا ، وهو يجول بها فى الوجود كله فلاتجد إلاالله ، ولاترى إلاالله ، ولاتحس بغير الله ، ولاتعلم لها مهربا من قدرته ولامخبأ من علمه ، ولامرجعا إلاإليه ، ولامتوجها إلا لوجهه الكريم :

« سبح لله مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..

هكذا ينطلق النص القرآنى الكريم فى مفتتح السورة ؛ فتتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله . ويهينم كل شىء فى السماوات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء . ولاحاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله . فالله يقول . ونحن لانعلم شيئا عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه . . ف « سبح لله مافى السماوات والأرض » تعنى « سبح لله مافى السماوات والأرض » .. ولاتأويل ولاتعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل مافى السماوات والأرض له روح ، يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح وإن هذا لهو أقرب تصور يصدقه ماوردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدقه تجارب بعض القلوب فى لحظات صفائها وإشراقها ، واتصالها بالحقيقة الكامنة فى الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها . .

وقد جاء فى القرآن الكريم : « ياجبال أوبى معه والطير » . . فإذا الجبال كالطير تؤوب مع داود ! وجاء فى الأثر : أخرج مسلم فى صحيحه عن جابر ابن سمرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن بمكة حجرا كان يسلم علىّ ليالى بعثت . إنى لأعرفه الآن » .. وروى

الترمذى ـ باسناده ـ عن على ابن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قال : كنت مع رسول الله بمكة فخرجنا فى بعض نواحيها ، فمااستقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : « السلام عليك يارسول الله » . وروى البخارى فى صحيحه باسناده عن أنس ابن مالك قال : «خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى لزق جذع . فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حنين الناقة ، فنزل الرسول فمسحه ، فسكن » . .

وآيات القرآن كثيرة وصريحة فى تقرير هذه الحقيقة الكونية : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » . . « ألم ترأن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس» . . « وإن من شىءإلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . ولا داعى لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن . فكل مقرراتنا عن الوجود وكل تصوراتنا عن الكون ينبغى أن تنبع أولا من مقررات خالق هذا الكون ومبدع هذا الوجود .

« وهو العزيز الحكيم » . . فتسبيح مافى السماوات والأرض له فرع عن العزة الغالبة والحكمة البالغة . فهو المهيمن على كل شىء بقوته ، وهو جاعل كل شىء وفق حكمته .

***

وما يكاد القلب البشرى يفيق من فيض هذا النص ، ومن مهرجان الوجود المسبح لخالقه فى السماوات والأرض ، حتى يعاجله السياق برحلة جديدة فى ملكوت السماوات والأرض :

« له ملك السماوات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير » . .

إن كل شىء فى السماوات والأرض سبح لله . مالك السماوات والأرض . الذى لاشريك له فى ملكه . فهو تسبيح المملوك لمالكه المتفرد ، الذى يحيى ويميت . فيخلق الحياة ويخلق الموت . ويقدر الحياة لكل حى ويقدر له الموت ؛ فلا يكون إلا قدره الذى قضاه .

والحياة ما تزال سرا فى طبيعتها ، وسرا فى مصدرها ؛ ولا يملك أحد أن يقول من أين جاءت، ولا كيف جاءت . فضلا على أن أحدا لايدرى ماهى على وجه الحقيقة . والنص القرآنى يقول : إن الله هو الذى يحيى . الذى يعطى الحياة للأحياء . وما يملك أحد أن ينكر هذا ولا أن يثبت غيره . والموت كالحياة سر مغلف . لايعرف أحد طبيعته ولا يملك أحد أن يحدثه.

لأن أحدا غير واهب الحياة لا يملك سلبها . . وهـذا وذلك من مظاهر الملـكية المطلقة لله فى السماوات والأرض يحيى ويميت . . .

« وهو على كل شىء قدير » .. إجمالا بغير حد ولا قيد . فالمشيئة المطلقة تمضى بغير حد ولا قيد . وتتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء . وكل قيد يتصوره العقل البشرى بمنطقه هو لهذه المشيئة من أى نوع وأى لون هو تصور باطل ، ناشىء من طبيعة العقل البشرى المحدود ! واختيار المشيئة لنواميس وسنن لهذا الوجود داخل فى حقيقة انطلاقها بلا قيود ولا حدود . فهى تختار هذه النواميس والسنن اختيارا طليقا، وتعملها فى الـكون غير مقيدة بها بعد إعمالها، ولا محصورة فى نطاقها . والاختيار دائم ومطرد وراء هذه السنن والنواميس . .

والقرآن يولى هذه الحقيقة عناية كبيرة ، فينص عليها فى كل مناسبة بما يفيد طلاقة المشيئة من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هى . لتبقى هذه الحقيقة واضحة ، ويبقى تصورها غير مشوب. فقد وعد الله أهل الجنة بالخلود فيها وأهل النار كذلك . وهذا الوعد صادر من المشيئة . ولـكنه أبقى المشيئة طليقة خارج نطاق هذا الوعد ذاته وهو من عملها وباختيارها . فقال عن هؤلاء وهؤلاء : « خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ماشاء ربك . . » . . وهكذا فى كل موضع وردت فيه مثل هذه المناسبة. ولا مجال لمنطق العقل البشرى ولا لمقرراته فى هذا المجال. وعليه أن يأخذ مقرراته كلها من هذا القرآن ، لا من معين آخر غير القرآن !

ومن ثم يتمثل للقلب البشرى من خلال هذه الآية سلطان الله المطلق فى ملـكه الذى لا شريك له فيه ، والذى يتوجه إليه سبحانه بالتسبيح وحق له أن يتوجه ، وحق عليه أن يسبح .

* * *

ومايكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التى تملأ الـكيان البشرى وتفيض ، حتى تطالعه حقيقة أخرى ، لعلها أضخم وأقوى . حقيقة أن لا كينونة لشىء فى هـذا الوجـود على الحقيقة . فالـكينونة الواحدة الحقيقية هى لله وحده سبحانه ؛ ومن ثم فهى محيطة بكل شىء ، عليمة بكل شىء :

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » ..

الأول فليس قبله شىء . والآخر فليس بعده شىء . والظاهر فليس فوقه شىء . والباطن فليس دونه شىء .

الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان ، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان. وهما مطلقتان .ويتلفت القلب البشرى فلايجد كينونة لشيء إلا لله . وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه . حتى وجود هـذا القلب ذاته لايتحقق إلامستمدا من وجـود الله . فهذا الوجود الإلهى هو الوجود الحقيقى الذى يستمد منه كل شيء وجوده . وهـذه الحقيقة هى الحقيقة الأولى التى يستمد منها كل شيء حقيقته . وليس وراءها حقيقة ذاتية ولاوجودذاتى لشيء فى هذا الوجود ..

« وهو بكل شيء عليم » . . علم الحقيقة الكاملة . فحقيقة كل شيء مستمدة من الحقيقة الإلهية وصادرة عنها . فهى مستغرقة إذن بعلم الله اللدنى بها . العلم الذى لايشاركه أحدفى نوعه وصفته وطريقته . مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء !

فإذا استقرت هذه الحقيقةالكبرى فى قلب،فمااحتفاله بشيء فى هذا الكون غيرالله سبحانه؟ وكل شيء لاحقيقة له ولاوجود-حتى ذلك القلب ذاته - إلامايستمده من تلك الحقيقة الكبرى؟ وكل شيء وهم ذاهب ، حيث لايكون ولايبقى إلاالله،المنفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء ؟

وإن استقرار هذه الحقيقة فى قلب ليحيله قطعة من هذه الحقيقة . فأما قبل أن يصل إلى هذا الاستقرار ، فإن هذه الآية القرآنية حسبه ليعيش فى تدبرها وتصور مدلولها ، ومحاولة الوصول إلى هذا المدلول الواحد وكفى !

ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى ، وهاموا بها وفيها ، وسلكوا إليها مسالك شتى ، بعضهم قال إنه يرى الله فى كل شيء فى الوجود . وبعضهم قال : إنه رأى الله من وراء كل شيء فى الوجود . وبعضهم قال : إنه رأى الله فلم ير شيئا غيره فى الوجود . . وكلها أقوال تشير إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة فى هذا المجال . إلا أن مايؤخذ عليهم -على وجه الإجمال- هو أنهم أهملوا الحياة بهـذا التصور . والإسلام فى توازنه المطلق يريد من القلب البشرى أن يدرك هـذه الحقيقة ويعيش بها ولها ، بينما هو يقوم بالخلافة فى الأرض بكل مقتضيات الخلافة من احتفال وعناية وجهاد وجهد لتحقيق منهج الله فى الأرض ، باعتبارهذا كله ثمرة لتصور تلك الحقيقة تصورا متزنا ، متناسقا مع فطرة الإنسان وفطرة الكون كما خلقهما الله .

***

وبعد إطلاق تلك الحقيقة الكبرى جعل يذكر كيف انبثقت منها حقائق الوجود الأخرى:

« هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وهو معكم أينما كنتم . والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » ..

حقيقة خلق السماوات والأرض . وحقيقة الاستواء على العرش والهيمنة على الخلق. وحقيقة العلم بأشياء بعينها من هذا الخلق . وحقيقة الوجود مع كل أحد أينما وجد . وحقيقة رجعة الأمور إليه وحده . وحقيقة تصرفه اللطيف فى كيان الوجود ، وعلمه الخفى بذات الصدور ..

وكلها حقائق منبثقة عن تلك الحقيقة الأولى . . ولكن عرضها فى هذا المجال الكونى يجعل لها فى القلب البشرى إيقاعات وظلالا .. والسماوات والأرض تواجه هذا القلب وتروعه بضخامتها وجلالها ، وتناسقها وجمالها ، كما تواجهه وتروعه بدقة نظامها وانضباط حركاتها ، واطراد ظواهرها . ثم إنها خلائق من خلق الله كالقلب البشرى . فله بها صلة الأسرة وأنس القرابة . وهى توقع على أوتاره إيقاعات لدنية حين يتوجه إليها ، ويسمع لها ، ويعاطفها ! وهى تقول له : إن الذى خلقها هو خلقه . وهى تسبح لخالقها فليسبح لخالقه ! كما تقول له : إنها تستمد حقيقة وجودها من وجود خالقها وأنه هو كذلك . فليس هنالك إذن إلا هذه الحقيقة تستحق الاحتفال بها !

والأيام الستة لا يعلم حقيقتها إلا الله . فأيامنا هذه ليست سوى ظلال ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس . وجدت بعد خلق الأرض والشمس فليست هى الأيام التى خلق الله فيها السماوات والأرض . فنترك علمها لله يطلعنا عليه إن أراد .

وكذلك العرش . فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته. أما الاستواء على العرش فنملك أن نقول : إنه كناية عن الهيمنة على هذا الخلق . استنادا إلى ما نعلمه من القرآن عن يقين من أن الله ـ سبحانه ـ لا تتغير عليه الأحوال . فلا يكون فى حالة عدم استواء على العرش ، ثم تتبعها حالة استواء . والقول بأننا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيته لا يفسر قوله تعالى : «ثم استوى » . . والأولى أن نقول : إنه كناية عن الهيمنة كما ذكرنا . والتأويل هنا لا يخرج على المنهج الذى أشرنا إليه آنفا لأنه لا ينبع من مقررات وتصورات من عند أنفسنا . إنما يستند إلى مقررات القرآن ذاته ، وإلى التصور الذى يوحيه عن ذات الله سبحانه وصفاته :

ومع الخلق والهيمنة العلم الشامل اللطيف ، يصور النص القرآني مجاله تصويراً عجيباً يشغل القلب بتتبعه في هذا المجال الوسيع ، وبتصوره في حركة دائمة لا تفتر . وهذا أمر غير مجرد ذكر العلم وحقيقته المجردة . أمر مؤثر موح يملأ جوانب النفس ، ويشغل خوالج القلب ، وتترامى به سبحات التصور ووثبات الخيال :

« يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » . .

وفي كل لحظة يلج في الأرض ما لا أعداد له ولا حصر من شتى أنواع الأحياء والأشياء ؛ ويخرج منها ما لا أعداد ولا حصر من خلائق لا يعلمها إلا الله . وفي كل لحظة ينزل من السماء من الأمطار والأشعة والنيازك والشهب ، والملائكة والأقدار والأسرار ؛ ويعرج فيها كذلك من المنظور والمستور ما لا يحصيه إلا الله . . والنص القصير يشير إلى هذه الحركة الدائبة التي لا تنقطع ، وإلى هذه الأحداث الضخام التي لا تحصى ؛ ويدع القلب البشري في تلفت دائم إلى ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وفي تصور يقظ لعلم الله الشامل وهو يتبع هذه الحركات والأحداث ، في مساربها ومعارجها .

والقلب في تلفته ذاك وفي يقظته هذه يعيش مع الله ، ويسبح في ملكوته بينما هو ثاو في مكانه ؛ ويسلك فجاج الكون ويجوب أقطار الوجود في حساسية وفي شفافية ، وفي رعشة من الروعة والانفعال .

وبينما القلب في تلفته ذاك في الأرض والسماء ، إذا القرآن يرده إلى ذاته ، ويلمسه في صميمه . وإذا هو يجد الله معه ، ناظراً إليه ، مطلعاً عليه ، بصيراً بعمله ، قريباً جد قريب :

« وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » . .

وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالله — سبحانه — مع كل أحد ، ومع كل شيء ، في كل وقت ، وفي كل مكان . مطلع على ما يعمل بصير بالعباد . وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب . حقيقة مذهلة من جانب . ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى . وهي كفيلة وحدها حين يحسها القلب البشري على حقيقتها أن ترفعه وتطهره ، وتدعه مشغولاً بها عن كل أعراض الأرض ؛ كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة ، مع الحياء والتحرج من كل دنس ومن كل إسفاف .

* * *

ومرة أخرى يعود إلى ملكية السماوات والأرض فى مجال آخر غير الذى وردت فيه أول مرة :

« له ملك السماوات والأرض . وإلى الله ترجع الأمور » . .

ففى المرة الأولى جاء ذكرها فى معرض الإحياء والإماتة والقدرة المطلقة . وهنا يجىء ذكرها فى معرض رجعة الأمور كلها إلى الله . وهى متصلة بملكية الله للسماوات والأرض ومكملة لحقيقتها.

والشعور بهذه الحقيقة يحرس القلب من كل لفتة لغير الله فى أى أمر . فى أول الأمر وفى آخره . ويحميه من التطلع لغير الله فى أى طلب ، ومراقبة غير الله فى أى عمل. ويقيمه على الطريق إلى الله فى سره وعلنه ، وحركته وسكونه ، وخوالجه ونجواه . وهو يعلم أن لامهرب من الله إلا إليه ، ولاملجأ منه إلا إلى حماه !

* * *

وينتهى هذا المطلع بحركة لطيفة من حركات القدرة فى مجال الكون ، وفى أطواء الضمير :

« يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . وهو عليم بذات الصدور » . .

ودخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، حركة دائبة ، وهى فى الوقت ذاته حركة لطيفة سواء كان المعنى طول الليل وأخذه من النهار ، وطول النهار وأخذه من الليل ؛ أو كان المعنى مجرد تداخل الليل فى النهار عند الغروب ، وتداخل النهار فى الليل عند الشروق . . ومثل هذه الحركة فى خفائها ولطفها ، حركة العلم بذات الصدور. وذات الصدور هى الأسرار المصاحبة لها ، التى لاتفارقها ولا تبرحها !

والشعور بيد الله تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، فى لطف ؛ ينشىء فى القلب حالة من التأمل الرفيق ، والحساسية الشفيفة . كالشعور بعلم الله يتلطف فى الاطلاع على ذات الصدور ، الساكنة فى خبايا الصدور !

* * *

هذا المطلع بإيقاعاته تلك ، يدع القلوب فى حساسية مرهفة للتلقى . ومن ثم يجىء الهتاف لها بالإيمان والبذل فى أنسب أوان . وقد تفتحت مداخلها ، وتوفزت مشاعرها ، واستعدت للاستماع . وهنا يجىء ذلك الهتاف فى المقطع التالى فى السياق . ولكنه لا يجىء مجردا . إنما يجىء ومعه مؤثراته وإيقاعاته ولمساته :

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . ومالكم لاتؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ، وقد أخذ ميثاقكم ؟ إن كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ؟ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير » . .

إن الله ـ سبحانه ـ يخاطب القلوب التى خلقها ، فهو يعلم أحوالها ، ويعرف مداخلها ، ويطلع على خوافيها . . وهو يعلم أن نقاء العقيدة ، وخلوص القلب ، واستقرار حقيقة الإيمان استقرارا تنبثق منه آثاره وتتأنجه فى واقع الحياة ، من بذل وتضحية وتقدمة خالصة لله . . أن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيرا ؛ ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة . ومن ثم يحشد لها هذه الإيقاعات وهذه المؤثرات ؛ ويكشف لها عن الحقائق الكونية لتراها وتتأثر بها ، وتزن كل شىء بميزانها الكبير الدقيق . ويعالجها المرة بعد المرة ، والخطوة بعد الخطوة ؛ ولا يكلها إلى هتاف واحد ، أو بيان واحد ، أو مؤثر واحد يوقع على أوتارها ثم يغيب . . ومنهج القرآن الإلهى فى علاج القلوب جدير بأن يقف الدعاة إلى الله أمامه طويلا ؛ ليتدبروه ويحاولوا أن يقلدوه !

إن الإيقاعات الأولى فى مطلع السورة من القوة والتوالى والعمق والتأثير ، بحيث تزلزل القلوب الجامدة ، وتلين القلوب القاسية ، وتدعها مرهفة الحساسية . ولكن القرآن لا يكل قلوب المخاطبين إلى هذه اللمسات الأولى ، وهو يدعوهم إلى الإيمان والبذل فى الفقرة التالية .

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . .

والمخاطبون هنا هم مسلمون ، ولكنهم يُدعون إلى الإيمان بالله ورسوله . فهى إذن حقيقة الإيمان يدعون لتحقيقها فى قلوبهم بمعناها . وهى لفتة دقيقة . وهم يُدعون إلى الإنفاق ، ومع الدعوة لمسة موحية . فهم لاينفقون من عند أنفسهم . إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه . وهو الذى « له ملك السماوات والأرض » . . فهو الذى استخلف بنى آدم جملة فى شىء من ملكه . وهو الذى « يحيى ويميت » .. فهو الذى استخلف جيلا منهم بعد جيل .

وهكذا ترتبط هذه الإشارة بما سبق من الحقائق الكلية فى مطلع السورة . ثم تقوم هى

بدورها فى استثارة الخجل والحياء من الله ، وهو المالك الذى استخلفهم وأعطاهم ، فماذا هم قائلون حين يدعوهم إلى إنفاق شىء مما استخلفهم فيه ومما أعطاهم ؟ ! وفى نهنهة النفوس عن الشح ، والله هو المعطى ولانفاد لما عنده ، فماذا يمسكهم عن البذل والعطاء ، ومافى أيديهم رهن بعطاء الله ؟ !

ولكنه لايكلهم إلى هذا التذكير ومايثيره من خجل وحياء ، ومن سماحة ورجاء . إنما يخاطبهم بمؤثر جديد . يخجلهم من كرم الله ويطمعهم فى فضله :

« فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » ..

فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل فى مواجهة هذا الكرم والفضل ؟

غير أن القرآن لايكلهم إلى هذه اللمسات الأولى . إنما يلح على قلوبهم بموحيات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابساتها :

« ومالكم لاتؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ، وقد أخذ ميثاقكم ، إن كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وإن الله بكم لرؤوف رحيم » ..

فما الذى يعوقهم عن الإيمان ـ حق الإيمان ـ وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان . وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم ؟ وماالذى يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة ؟ وفى هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم مافيه .

إن نعمة وجود الرسول بين القوم ، يدعوهم بلغة السماء ، ويخاطبهم بكلام الله ، ويصل بينهم وبين الله فى ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم . . نعمة فوق التصور حين تتملاها نحن الآن من بعيد . . فهذه الفترة ـ فترة الوحى وحياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فترة عجيبة حقا .. إن الله ـ جل جلاله ـ يخاطب هذا البشر من صنع يديه ، على لسان عبده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى رحمة علوية ندية يقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك ! ها هو ذا طريقى فاسلكوه ! لقد تعثرت خطاكم فهاكم حبلى ! لقد أخطأتم وأثمتم فتوبوا وها هو ذا بابى مفتوح . تعالوا ولا تشردوا بعيدا ، ولا تقنطوا من رحمتى التى وسعت كل شىء ..وأنت يافلان ـ بذاتك وشخصك ـ

قلت كذا . وهو خطأ . ونويت كذا . وهو إثم . وفعلت كذا وهي خطيئة . . فتعال هنا قدامى وتطهر وتب وعد إلى حماى . . وأنت يافلان ــ بذاتك وشخصك ــ أمرك الذى يعضلك هذا حله . وسؤالك الذى يشغلك هذا جوابه . وعملك الذى عملت هذا وزنه !

إنه الله . هو الذى يقول . يقول لهؤلاء الخلائق . وهم يعيشون معه . يحسون أنه معهم . حقيقة وواقعا . أنه يستمع إلى شكواهم فى جنح الليل ويستجيب لها . وأنه يرعاهم فى كل خطوة ويعنى بها . .

ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذى لم يعش هـذه الفترة أن يتصور . ولكن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات عاشوها فعلا . . ثم احتاجوا إلى مثل هذا العلاج ومثل هـذه اللمسات ، ومثل هذا التذكير . . وهو فضل من الله ورحمة فوق فضله ذاك ورحمته . يدركها ويشعر بها من لم تقدر له الحياة فى هذه الفترة العجيبة :

ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال يوما لأصحابه : « أى المؤمنين أعجب إليكم ؟ » قالوا : الملائكة . قال « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » . قالوا : فالأنبياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ » . قالوا : فنحن . قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها » . .

وصدق رسول الله . إنه لأمر متفاوت . وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشيء هائل ، هائل ، عجيب عجيب . وهو يعجب : مالهم لا يؤمنون؟ ثم يطلب إليهم تحقيق الإيمان فى نفوسهم إن كانوا مؤمنين !

ثم ينتقل بهـم من موحيات الإيمـان وموجباته إلى موحيـات الإنفـاق وموجباته فى توكيد وتكرير :

« وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ؟ » . .

وفى هـذه الإشارة عودة إلى حقيقة : « له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور » . . فميراث السماوات والأرض ملكه وراجع إليه ، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه فى الميراث ! فما لهم لا ينفقون فى سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق . وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك . وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا ؟ وما الذى يبقى من دواعى الشح وهواتف البخل أمام هذه الحقائق فى هذا الخطاب ؟

ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من السابقين ، من المهاجرين والأنصار ، ما وسعها من النفس والمال ، فى ساعة العسرة وفترة الشدة ـ قبل الفتح ـ فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتز به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريبا محاصرا من كل جانب ، مطاردا من كل عدو ،قليل الأنصار والأعوان . وكان هذا البذل خالصا لاتشوبه شائبة من طمع فى عوض من الأرض ، ولا من رياء أمام كثرة غالبة من أهل الإسلام .كان بذلا منبثقا عن خيرة اختاروها عند الله ؛ وعن حمية لهذه العقيدة التى اعتنقوها وآثروها على كل شىء وعلى أرواحهم وأموالهم جميعا . . ولكن مابذلوه ــ من ناحية الكم ـ كان قليلا بالقياس إلى ما أصبح الذين جاءوا بعد الفتح يملكون أن يبذلوه . فكان بعض هؤلاء يقف ببذله عند القدر الذى يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه ! هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك ، وليقرر أن الكم ليس هو الذى يرجح فى الميزان ؛ ولكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان :

« لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل .أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » . .

إن الذى ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة ،والأنصار قلة ، وليس فى الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء . غير الذى ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة ، والأنصار كثرة ، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال . ذلك متعلق مباشرة بالله ، متجرد تجردا كاملا لاشبهة فيه ، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده ، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب . لايجد على الخير عونا إلا مايستمده مباشرة من عقيدته . وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين .

قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد ابن عبد الملك ، حدثنا زهير ، حدثنا حميد الطويل ، عن أنس ، قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمان ابن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمان : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « دعوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لوأنفقتم مثل أحد ـ أومثل الجبال ـ ذهبا مابلغتم أعمالهم » (١) ..

---

(١) يتحدد من هذا الحديث معنى معين لأصحاب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين تكرر تحذيره بشأنهم . فهم أولئك السابقون . وقد كان يقول للمسلمين حوله وممن صاحبوه : « دعوا لى أصحابى... » فدل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى صحبة خاصة . . وكذلك قال فى مرة عن الصديق ـ رضى الله عنه ـ : « دعوا لى صاحبى » . .

وفى الصحيح : « لاتسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لوأنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مُدّ أحدهم ولانصيفه » (١) .

وبعد أن قرر القيم الحقيقية فى ميزان الله لهؤلاء ولهؤلاء عاد فقرر أن للجميع الحسنى :

« وكلا وعد الله الحسنى » ..

فقد أحسنوا جميعا ، على تفاوت مابينهم فى الدرجات .

ومرد ذلك التفاوت وهذا الجزاء بالحسنى للجميع ، إلى مايعلمه الله من تقدير أحوالهم ، وماوراء أعمالهم من عزائمهم ونواياهم . وخبرته تعالى بحقيقة مايعملون :

« والله بما تعملون خبير » ..

وهى لمسة موقظة للقلوب ، فى عالم النوايا المضمرة وراء الأعمال الظاهرة ، وهى التى تناط بها القيم ، وترجح بها الموازين ..

* * *

ثم مرحلة أخرى فى استجاشة القلوب للإيمان والبذل ، ومؤثرات أخرى وراء تلك المؤثرات :

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم ؟ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم . قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وتربصتم ، وارتبتم ، وغرتكم الأمانى ، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور . فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم ، وبئس المصير » ..

إنه هتاف موح مؤثر آسر . وهو يقول للعباد الفقراء المحاويج : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ؟ » .. ومجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه ، كفيل بأن يطير به إلى البذل طيرانا ! إن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثرى المليء منهم — وهم كلهم فقراء — لأن السداد مضمون . ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثرى المليء ! فكيف إذا كانوا يقرضون الغنى الحميد ؟ !

---

(١) انظر الهامشة السابقة .

ولا يكلهم ـ سبحانه ـ إلى هذا الشعور وحده ، ولكن يمدهم على القرض الحسن الخالص له ، المجرد من كل تلفت إلى سواه . يعدهم عليه الضعف فى المقدار ، والأجر الكريم بعد ذلك من عند الله : « فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .

ثم يعرض لهم صفحة وضيئة من ذلك الأجر الكريم ، فى مشهد من مشاهد اليوم الذى يكون فيه ذلك الأجر الكريم .

« والمشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد ـ بين المشاهد القرآنية ـ وهو من المشاهد التى يحييها الحوار بعد أن ترسم صورتها المتحركة رسما قويا . فنحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهدا عجيبا . هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم . ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعا لطيفا هادئا . ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم . فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نورا يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها . . إنه النور الذى أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذى أشرق فى أرواحها فغلب على طينتها . أم لعله النور الذى خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه ، [1] ظهر بحقيقته فى هذه المجموعة التى حققت فى ذواتها حقيقتها !

« ثم هانحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير: « بشرا كم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » . .

ولكن المشهد لاينتهى عند هذا المنظر الطريف اللطيف . . إن هناك المنافقين والمنافقات ، فى حيرة وضلال ، وفى مهانة وإهمال . وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم » . . فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف . ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها فى الظلام ؟ إن صوتا مجهلا يناديهم : « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » . . ويبدو أنه صوت للتهكم ، والتذكير بما كان منهم فى الدنيا من نفاق ودس فى الظلام : ارجعوا وراءكم إلى الدنيا . إلى ما كنتم تعملون . ارجعوا فالنور يلتمس من هناك . من العمل فى الدنيا . ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور !

---

(١) المعتقد الآن أن مادة الكون هى النور . وأنه مؤلف من ذرات . وأن الذرة فى حقيقتها ليست سوى إشعاع . وقد تكون هذه النظرية أقرب النظريات إلى الصحة ، لأنها تسير على درب القرآن !

« وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات . فهذا يوم الفصل إن كانوا فى الدنيا مختلطين فى الجماعة : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » .. ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت . فهاهم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين : « ألم نكن معكم ؟ » . . فما بالنا نفترق عنكم ؟ ألم نكن معكم فى الدنيا نعيش فى صعيد واحد ؟ وقد بعثنا معكم هنا فى صعيد واحد ؟ « قالوا : بلى ! » كان الأمر كذلك . « ولكنكم فتنتم أنفسكم » .. فصرفتموها عن الهدى. « وتربصتم » .. فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة. « وارتبتم » .. فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة . « وغرتكم الأمانى » الباطلة فى أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها ! « حتى جاء أمر الله » .. وانتهى الأمر . « وغركم بالله الغرور » .. وهو الشيطان الذى كان يطمعكم ويمنيكم .

« ثم يستطرد المؤمنون فى التذكير والتقرير ، كأنما هم أصحاب الموقف المحكمون فيه : «فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير» أم لعلها كلمة الملأ الأعلى ، أو نطق الله الكريم ..

« وننظر من ناحية التناسق الفنى فى عرض المشهد ، فنجد لاختيار مشهد النور فى هذا الموضع بالذات حكمة خاصة . . إن الحديث هنا عن المنافقين والمنافقات . . والمنافقون والمنافقات يخفون باطنهم ويتظاهرون بغير ما فى الضمير المكنون ، ويعيشون فى ظلام من النفاق والدس والوقيعة . والنور يكشف المخبوء ويفضح المستور . كما أنه الصفحة المقابلة الوضيئة لصفحة النفاق المظلمة المطموسة . فهو أليق شىء بأن تطلق أشعته على المشهد الكبير . وبأن ينير بين أيدى المؤمنين والمؤمنات وبأيمانهم ، بينما المنافقون فى الظلام الذى يناسب ظلمات الضمير وظلمات الخفاء المستور ! » (١)

وبعد فأى قلب لا يهفو لذلك النور فى ذلك اليوم ؟ وأى قلب لا يستجيب لهتاف الإنفاق والبذل تحت إيقاع تلك الموحيات العميقة التأثير ؟

إنه القرآن يعالج القلوب فى ثبات واطراد ، ويدعوها دعاء العليم الخبير بطبيعتها ومداخلها ومساربها ؛ وما تستجيب له وما يؤثر فيها :

والشوط الثانى فى السورة استطراد فى الدعاء ، ومزيد من موحيات الاستجابة ، على هذا النهج ، وفى هذا الطريق . .

---

(١) عرض هذا المشهد مأخوذ بتصرف عن كتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن » .

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ؟ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

« إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

« سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ . ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا ،

وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ، وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ، وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ ، وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » . .

هذا الشوط امتداد لموضوع السورة الرئيسى : تحقيق حقيقة الإيمان فى النفس ، حتى ينبثق عنها البذل الخالص فى سبيل الله . وفيه من موحيات الإيمان ، ومن الإيقاعات المؤثرة ، قريب مما اشتمل عليه الشوط الأول ، بعد ذلك المطلع العميق المثير .

وهو يبدأ برنة عتاب من الله ــ سبحانه ــ للمؤمنين ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة التى التى يريدها الله لهم ؛ وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة فى القلوب وفسق فى الأعمال ، وتحذير من هذا المآل ، الذى انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم . مع إطماعهم فى عون الله الذى يحيى القلوب كما يحيى الأرض بعد موتها .

فإذا انتهت هذه اللمسة تبعتها لمسة أخرى ــ مجالها العالم الآخر ــ وتكررت الدعوة إلى إقراض الله قرضا حسنا ، مع بيان ما أعده الله لمن يقرضونه فى الدنيا من العوض المضاعف والأجر الكريم . . على نحو مما جاء فى الشوط الأول .

ولمسة ثالثة بوضع قيم الدنيا كلها فى ميزان الله إلى جانب قيم الآخرة . . حيث تبدو قيم الأرض لعبا خفيفة الوزن ؛ وترجح كفة الآخرة ويبدو فيها الجد الذى يستحق الاهتمام .

ومن ثم يهتف بهم ليسابقوا إلى قيم الآخرة . . فى جنة عرضها كعرض السماء والأرض . أعدت للذين آمنوا بالله ورسله .

ولمسة رابعة ترجع بهم من ساحة الآخرة إلى ماهم فيه من واقع الحياة وأحداثها ، فتعلق

قلوبهم بقدر الله فيها . فى السراء والضراء سواء . ومن ثم يهون عليهم البذل ، ولا يزدهيهم من أعراض الأرض شيء ؛ وترتبط أحاسيسهم كلها بالسماء .

وبعد ذلك يعرض عليهم طرفا من تاريخ دعوة الله فى الأرض ، تبدو فيه وحدة المنهج ، واستقامة الطريق . وأن الذى يحيد عنه فى كل عهد هم الفاسقون . ويلوح لهم بما كان من بعض أهل الكتاب كما لوح لهم فى أول الشوط . لينتهى من هذا إلى الهتاف الأخير لهم بتقوى الله والإيمان برسوله ، ليؤتيهم كفلين من رحمته ، ويجعل لهم نورا يمشون به ويغفر لهم . ففضل الله ليس وقفا على أهل الكتاب كما يزعمون . إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء « والله ذو الفضل العظيم » . .

وهكذا تكون السورة من أولها إلى آخرها مترابطة الحلقات ، فى خط واحد ثابت ، تتوالى إيقاعاتها على القلوب ، منوعة ومتشابهة . فيها من التكرار القدر اللازم لتعميق أثر الإيقاع فى القلب ، وطرقه وهو ساخن بحرارة الإيقاع بعد الإيقاع !

***

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون . اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها . قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . .

إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم ؛ واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التى أفاض عليها من فضله ؛ فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها ، ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور ؛ وأراها من آياته فى الكون والخلق ما يبصر ويحذر.

عتاب فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله، والخشوع لذكره، وتلقى ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام، مع رائحة التنديد والاستبطاء فى السؤال :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ » . .

وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة ، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء ، وما تنتهى إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله ، وحين لا تخشع للحق :

« ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » . .

وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج .

إن هذا القلب البشرى سريع التقلب ، سريع النسيان . وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور، ويرف كالشعاع ؛ فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد وقسا ، وانطمست إشراقته ، وأظلم وأعتم ! فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع ، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ؛ ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة .

ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد . فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة ، وأن يشرق فيه النور، وأن يخشع لذكر الله . فالله يحي الأرض بعد موتها ، فتنبض بالحياة، وتزخر بالنبت والزهر ، وتمنح الأكل والثمار . . وكذلك القلوب حين يشاء الله :

« اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها » . .

وفى هذا القرآن مايحيى القلوب كما تحيا الأرض ؛ وما يمدها بالغذاء والرى والدفء :

« قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . .

* * *

ويتبع هذه اللمسة المحيية ، وذلك العتاب المخجل ، وذاك التذكير والتحذير ، بحافز جديد للبذل والفداء :

« إن المصدقين والمصدقات ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعف لهم ولهم أجر كريم . والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ؛ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » . .

إن المتصدقين والمتصدقات لا يتفضلون على آخذى الصدقات ، ولا يتعاملون فى هذا مع الناس. إنما هم يقرضون الله ويتعاملون مباشرة معه . فأى حافز للصدقة أوقع وأعمق من شعور المعطى بأنه يقرض الغنى الحميد ، وأنه يتعامل مع مالك الوجود ؟ وأن ماينفقه مخلف عليه مضاعفا؛ وأن له بعد ذلك كله أجر كريم ؟

ومقام الصديقين مقام رفيع كما تصوره الأحاديث النبوية الشريفة . ومع علو هذا المقام فهو بفضل الله ميسور لمن أراده ، وليس وقفا على أفراد ولا على طائفة . فكل من يحقق إيمانه بالله ورسله يطمع فى هذا المقام الرفيع ، ولا حجر على فضل الله :

« والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون » ..

وتلك خاصية هذا الدين وميزته . إنه طريق مفتوح لجميع البشر ، وأفق يتطلع إليه الجميع ، ليس فيه احتكار للمقامات ، وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم . وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات . إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام !

روى الإمام مالك فى كتابه « الموطأ » عن صفوان ابن سليم ، عن عطاء ابن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » . . قالوا : يارسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : « بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » (١) ..

فهذه لمسة الإيمان . فأما لمسة الفداء فقوله بعد ذلك :

« والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » ..

والحديث عن مقام الشهداء ورد مرات فى القرآن ، وتواترت به الأحاديث النبوية . فهذا الدين لا يقوم بغير حراسة ؛ ولا يتحقق فى الارض بغير جهاد . جهاد لتأمين العقيدة وتامين الدعوة وحماية أهله من الفتنة وشريعته من الفساد . ومن ثم كان للشهداء فى سبيل الله — وهم وحدهم الذين يسمون شهداء — مقامهم . وكان لهم قربهم من ربهم . القرب الذى يعبر عنه بأنهم « عند ربهم » . .

جاء فى الصحيحين : « أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل . فاطلع عليهم ربهم اطلاعة ، فقال : ماذا تريدون ! فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قتلنا أول مرة . فقال : إنى قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء — إلا الشهيد — ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة » . .

وكذلك كانت تهون الحياة على من يسمع هذه الموحيات ، ويعرف مقام الشهادة عند الله ..

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث مالك .

روى الإمام مالك ... عن يحيى ابن سعيد « أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رغب فى الجهاد وذكر الجنـة ، ورجل من الأنصار يأكل تمرات فى يده . فقال : إنى لحريص على الدنيا إن جلست حتى أفرغ منهن ! فرمى ما فى يده وحمل بسيفه حتى قتل » . . وقد روى أن هذا كان هو عمير ابن الحمام عليه رضوان الله .

وبينما الصديقون فى ذلك المقـام والشهداء فى هـذا المقـام يقـول النص القرآنى عـن الـكافرين المـكذبين :

« والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » . .

فمن ذا الذى يترك الـكرامة والنعيم ، ويختار أن يـكون من أصحاب الجحيم ؟!

***

واللمسة الثالثة فى هـذا الشوط تجىء تعقيبا على دعوة الإيمان والبذل ، ودعوة الفـداء والتضحية . تعقيبا يصور الدنيا كلها بصورة هزيلة زهيـدة تهوّن من شأنها وترفع النفوس عنها ، وتعلقها بالآخرة وقيمها :

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينـكم ، وتـكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الـكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يـكون حطاما . وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . .

والحيـاة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هى وتوزن بموازينها تبدو فى العين وفى الحس أمرا عظيما هائلا . ولـكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيدا تافها . وهى هنا فى هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما فى الآخرة من جد تنتهى إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة !

لعب . ولهو . وزينة . وتفاخر . وتـكاثر . . . هذه هى الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل . . ثم يمضى يضرب لها مثلا مصورا على طريقة القرآن المبدعة . . « كمثل غيث أعجب الـكفار نباته » . . والـكفار هنا هم الزراع . فالـكافر فى اللغة هو الزارع ، يـكفر أى يحجب الحبة ويغطيها فى التراب . ولـكن اختياره هنا فيه تورية وإلماع إلى إعجاب الـكفار بالحياة الدنيا ! « ثم يهيج فتراه مصفرا » للحصاد . فهو موقوت الأجل ، ينتهى عاجلا ، ويبلغ أجله قريبا « ثم يـكون حطاما » . . وينتهى شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة . . ينتهى بمشهد الحطام !

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ، ويستعد له : « وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » .. فهى لاتنتهى فى لمحة كما تنتهى الحياة الدنيا . وهى لاتنتهى إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله .. إنها حساب وجزاء.. ودوام .. يستحق الاهتمام !

« وما الحياة الدنيا إلامتاع الغرور » ..

فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، إنمايستمد قوامه من الغرور الخادع ؛ كما أنه يلهى وينسى فينتهى بأهله إلى غرور خادع .

وهى حقيقة حين يتعمق القلب فى طلب الحقيقة . حقيقة لايقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ، ولاإهمال عمارتها وخلافتها التى ناطهابهذا الكائن البشرى (١). إنما يقصدبها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض. هذا الاستعلاء الذى كان المخاطبون بهذه السورة فى حاجة إليه ليحققوا إيمانهم . والذى يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة ، ليحقق عقيدته ؛ ولواقتضى تحقيقها أن يضحى بهذه الحياة الدنيا جميعا.

ومن ثم يدعوهم إلى السباق فى ميدان السباق الحقيقى ، للغاية التى تستحق السباق . الغاية التى تنتهى إليها مصائرهم ، والتى تلازمهم بعد ذلك فى عالم البقاء :

« سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم » . .

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار ! إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض : « جنة عرضها كعرض السماء والأرض » . .

وربما كان بعضهم فى الزمن الخالى ـ قبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون ـ يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز ، وكذلك حمل بعض الأحاديث النبوية . كذلك الحديث الذى أسلفنا عن أصحاب الغرف التى يتراءاها سكان الجنة كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب . . فأما اليوم ومراصد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التى ليس لها حدود ، فإن الحديث عن عرض الجنة ، والحديث عن تراءى الغرف من بعيد ،

(١) يرجع الى تفسير قوله تعالى : « وماخلقت الجن والإنس إلاليعبدون » . . فى سورة الذاريات فى هذا الجزء .

يقع قطعا موقع الحقيقة القريبة البسيطة المشهودة ، ولا يحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقا ! فإن مابين الأرض والشمس مثلا لايبلغ أن يكون شيئا فى أبعاد الكون يقاس !

وذلك الملك العريض فى الجنة يبلغه كل من أراد ، ويسابق إليه كل من يشاء . وعربونه : الإيمان بالله ورسله . « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . . « والله ذو الفضل العظيم » . . وفضل الله غير محجوز ولا محجور . فهو مباح متاح للراغبين والسابقين . وفى هذا فليتسابق المتسابقون . لا فى رقعة الأرض المحدودة الأجل المحدودة الأركان !

ولابد لصاحب العقيدة أن يتعامل معهذاالوجود الكبير ؛ ولا يحصر نفسهونظره وتصوره واهتمامه ومشاعره فى عالم الأرض الضيق الصغير .. لابد له منهذا ليؤدى دوره اللائق بصاحب العقيدة . هذاالدور الشاق الذى يصطدم بحقارات الناس وأطماعهم ، كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس. ويعانى من مقاومة الباطل وتشبثه بموضعه من الأرض ما لا يصبر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة ، وأوسع من هذه الأرض ، وأبقى من ذلك الفناء . .

إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لاتمثل الحقيقة التى ينبغى أن تستقر فى ضمير صاحب العقيدة .وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلا بقدرما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون؛ وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد . والفارق هائل هائل لاتبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحدده ولا حتى أن تشير إليه !

ومن ثم يبقى صاحب العقيدة فى أفق الحقيقة الكبيرة مستعليا على واقع الأرض الصغير . مهما تضخم هذا الواقع وامتد واستطال . يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير . ويتعامل مع الوجود الكبير الذى يتمثله فى الأزل والأبد . وفى ملك الآخرة الواسع العريض . وفى القيم الإيمانية الثابتة التى لاتهتز لخلل يقع فى موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة .. وتلك وظيفة الإيمان فى حياة أصحاب العقائد المختارين لتعديل قيم الحياة . وموازينها ، لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها ....

***

ثم تجىء اللمسة الرابعة فى إيقاع عميق ، عن قدر الله ، الذى لايكون سواه :

« ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولافى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكى لاتأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم ، والله لايحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » . .

إن هـذا الوجود من الدقة والتقـدير بحيث لايقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل فى تصميمه ، محسوب حسابه فى كيانه . . لامكان فيه للمصادفة . ولاشىء فيه جزاف . وقبل خلق الأرض وقبل خلق الأنفس كان فى علم الله الـكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق فى وقته المقدور .. وفى علم الله لاشىء ماض ، ولاشىء حاضر ، ولاشىء قادم . فتلك الفواصل الزمنية إنما هى معالم لنا ــ نحن أبناء الفناء ــ نرى بها حدود الأشياء . فنحن لاندرك الأشياء بغير حدود تميزها . حدود من الزمان وحدود من المـكان . نحن لانملك إدراك المطلق إلا فى ومضات تتصل فيها أرواحنا بذلك المطلق ،عن طريق غير الطريق الذى اعتدناه فى إدراك الأشياء. فأما الله ــ سبحانه ــ فهو الحقيقة المطلقة التى تطلع جملة على هذا الوجود ، بلاحدود ولاقيود . وهذا الـكون ومايقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن فى علم الله جملة لاحدود فيه ولافواصل من زمان أومكان . ولـكل حادث موضعه فى تصميمه الـكلى المـكشوف لعلم الله. فـكل مصيبة ــ من خير أوشر فاللفظ على إطلاقه اللغوى لايختص بخير ولا بشر ــ تقع فى الأرض كلها وفى أنفس البشر أوالمخاطبين منهم يومها . . هى فى ذلك الـكتاب الأزلى من قبل ظهور الأرض وظهور الأنفس فى صورتها التى ظهرتْ بها .. « إن ذلك على الله يسير » . .

وقيمة هـذه الحقيقة التى لايتصور العقل غيرها حـين يتصور حقيقة الوجود الـكبرى . قيمتها فى النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها . فلاتجزع الجزع الذى تطير به شعاعا وتذهب معه حسرات عند الضراء . ولاتفرح الفرح الذى تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء :

« لـكى لاتأسوا على مافاتـكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم » . .

فاتساع أفق النظر ، والتعامل مع الوجود الـكبير ،وتصور الأزل والأبد ،ورؤية الأحداث فى مواضعها المقدرة فى علم الله ، الثابتة فى تصميم هذا الـكون . . كل أولئك يجعل النفس أفسح وأكبر وأكثر ثباتا ورزانة فى مواجهة الأحداث العابرة . حين تتـكشف للوجود الإنسانى وهى مارة به فى حركة الوجود الـكونى .

إن الإنسان يجزع ويستطار وتستخفه الأحداث حين ينفصل بذاته عن هذا الوجود . ويتعامل مع الأحداث كأنها شىء عارض يصادم وجوده الصغير . فأما حين يستقر فى تصوره وشعوره أنه هو والأحداث التى تمر به ، وتمر بغيره ، والأرض كلها . . ذرات فى جسم كبير

هو هـذا الوجود . . وأن هـذه الذرات كائنة فى موضعها فى التصميم الـكامل الدقيق . لازم بعضها لبعض . وأن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم فى علم الله المكنون . . حين يستقر هذا فى تصوره وشعوره، فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء . فلا يأسى على فائت أسى يضعضعه ويزلزله ، ولا يفرح بحاصل فرحا يستخفه ويذهله . ولـكن يمضى مع قدر الله فى طواعية وفى رضى . رضى العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذى ينبغى أن يكون !

وهذه درجة قد لا يستطيعها إلا القليلون . فأما سائر المؤمنين فالمطلوب منهم ألا يخرجهم الألم للضراء ، ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله ، وذكره بهذه وبتلك ، والاعتدال فى الفرح والحزن. قال عكرمة ـ رضى الله عنه ـ «ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ،ولـكن اجعلوا الفرح شكرا والحزن صبرا » . . وهذا هو اعتدال الإسلام الميسر للأسوياء . .

« والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » . .

ووجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الاختيال والفخر ، ثم بين هذا وذلك وبين البخل والأمر بالبخل ، هو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله ، لا يختال ولا يفخر بما يعطاه . ولا يبخل ولا يأمر بالبخل فى عطاء . فأما الذى لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به ؛ ثم يبخل كذلك يبذل شىء منه ، ويحث غيره على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه !

« ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » . .

فمن ينفق فإنما ينفق لنفسه ، ومن يستجب فإنما يستجيب لمصلحته . والله هو الغنى فما به من حاجة إلى العباد المحاويج . والله هو الحميد بذاته فما يناله شىء من حمد الحامدين !

* * *

وفى النهاية يجىء المقطع الأخير فى السورة ، يعرض باختصار خط سير ، الرسالة ، وتاريخ هذه العقيدة ، من لدن نوح وإبراهيم ؛ مقررا حقيقتها وغايتها فى دنيا الناس ؛ ملما بحال أهل الـكتاب وأتباع عيسى ـ عليه السلام ـ بصفة خاصة .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الـكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب. إن الله قوى عزيز . ولقـد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما النبوة والـكتاب ، فمنهم مهتد وكثير منهـم

فاسقون . ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم ، وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ، إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » . .

فالرسالة واحدة فى جوهرها ، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها ، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق . وبعضهم أنزل عليه كتاب . والنص يقول : « وأنزلنا معهم الكتاب » بوصفهم وحدة ، وبوصف الكتاب وحدة كذلك ، إشارة إلى وحدة الرسالة فى جوهرها .

« والميزان » . . مع الكتاب . فكل الرسالات جاءت لتقر فى الأرض وفى حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية ، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال ؛ وتقيم عليه حياتها فى مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع . ميزانا لا يحابى أحدا لأنه يزن بالحق الإلهى للجميع ، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع .

هذا الميزان الذى أنزله الله فى الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التى تحيق بها فى معترك الأهواء ومضطرب العواطف ، ومصطخب المنافسة وحب الذات . فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة . « ليقوم الناس بالقسط » . . فبغير هذا الميزان الإلهى الثابت فى منهج الله وشريعته ، لا يهتدى الناس إلى العدل ، وإن اهتدوا إليه لم يثبت فى أيديهم ميزانه ، وهى تضطرب فى مهب الجهالات والأهواء !

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . .

والتعبير بأنزلنا الحديد كالتعبير فى موضع آخر بقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » . كلاهما يشير إلى إرادة الله وتقديره فى خلق الأشياء والأحداث ، فهى منزلة بقدره وتقديره . فوق مافيه هنا من تناسق مع جو الآية ، وهو جو تنزيل الكتاب والميزان ، فكذلك ماخلقه الله من شىء مقدر تقدير كتابه وميزانه .

أنزل الله الحديد « فيه بأس شديد » .. وهو قوة فى الحرب والسلم « ومنافع للناس » .. وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد . « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . وهى إشارة إلى الجهاد بالسلاح ؛ تجىء فى موضعها فى السورة التى تتحدث عن بذل النفس والمال .

ولما تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب ، عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم

لله ورسله ، فهو نصر لمنهجه ودعوته ، أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر : « إن الله قوى عزيز » . .

ولما انتهى من تقرير وحدة الرسالة فى جوهرها وكتابها وميزانها عاد يقرر وحدتها فى رجالها ، فهم من ذرية نوح وإبراهيم .

« ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب » . .

فهى شجرة واحدة باسقة ، متشابكة الفروع ، فيها النبوة والكتاب . ممتدة من فجر البشرية منذ نوح ، حتى إذا انتهت إلى إبراهيم ، تفرعت وامتدت وانبثقت النبوات من ذلك الفرع الكبير الذى صار أصلا باسقا ممتدا إلى آخر الرسالات .

فأما الذرية التى جاءتها النبوات والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة : « فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » . .

وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل !

وقرب نهاية الخط يجىء عيسى ابن مريم :

« ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم » . .

أى على آثار السابقين من ذرية نوح وإبراهيم . فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إثر واحدة حتى جاء عيسى ابن مريم .

ويذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى ابن مريم : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » . . وهم الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح — عليه السلام — وروحها السمحة وتطهرها الروحى ، وشفافيتها الوضيئة . والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة فى المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام ، ممن أحسنوا اتباعه . وقد أشارت إليها آيات أخرى فى القرآن الكريم ، كما حفظ منها التاريخ صورا يرويها الرواة عن النجاشى وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين فى الإسلام ، بحكم ما استقر فى قلوبهم من الحق ، مذ كانوا أتباع عيسى ابن مريم بحق .

كذلك يذكر النص هنا ظاهرة أخرى عرفت فى تاريخ أتباع المسيح عيسى ابن مريم : « ورهبانية ابتدعوها — ما كتبناها عليهم — إلا ابتغاء رضوان الله » .

والراجح فى تفسير الآية أن هذه الرهبانية التى عرفها تاريخ المسيحية كانت اختيارا من بعض أتباع عيسى عليه السلام ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، وابتعادا عن أوضار الحياة ، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء . ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها ، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع ،

وقناعة وعفة ، وذكر وعبادة . . مما يحقق فى أنفسهم حقيقة التجرد لله ، التى قصدوا إليها بهذه الرهبانية التى ابتدعوها .

ولكنها انتهت إلى أن تصبح فى الغالب طقوسا وشعائر خالية من الروح ، وأن يتخذها الكثيرون مظهرا عاريا من الحقيقة . فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل :

« فما رعوها حق رعايتها . فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » . .

والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال ، ولا بالطقوس والمسوح . إنما يأخذهم بالعمل والنية ، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك . وهو الذى يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور.

* * *

وبعد هذا العرض السريع يجىء الهتاف الأخير للذين آمنوا ، وهم الحلقة الأخيرة فى سلسلة المؤمنين برسالة الله فى تاريخها الطويل ؛ وورثة هذه الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين :

« ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . .

ونداؤهم على هذا النحو : « ياأيها الذين آمنوا » فيه لمسة خاصة لقلوبهم ، واستحياء لمعنى الإيمان ، وتذكير برعايته حق رعايته ؛ واستجاشة للصلة التى تربطهم بربهم الذى يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب . وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله . فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص . . معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار .

اتقوا الله وآمنوا برسوله . . « يؤتكم كفلين من رحمته » . . أى يعطكم نصيبين من رحمته وهو تعبير عجيب . فرحمة الله لا تتجزأ ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها . ولكن فى هذا التعبير زيادة امتداد الرحمة وزيادة فيض . .

« ويجعل لكم نورا تمشون به » . . وهى هبة لدنية يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه ، وتؤمن حق الإيمان برسوله . هبة تنير تلك القلوب فتشرق ، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر ؛ فلا تتخبط ، ولا تلتوى بها الطريق . . « نورا تمشون به » . .

« ويغفر لكم . والله غفور رحيم » . . . فالإنسان إنسان مهما وهب من النور . إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق . إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله . . « والله غفور رحيم » . .

« ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » .. لتنالوا كفلين من رحمة الله . ويكون

لكم ذلك النور تمشون به . وتدرككم رحمة الله بالمغفرة من الذنب والتقصير .. « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .. فقد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا » .. « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » .. فالله يدعو الذين آمنوا إلى استحقاق رحمته وجنته وهبته ومغفرته حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على احتجاز شيء من فضله ، وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، غير مقصور على قوم ، ولا محجوز لطائفة ، ولا محدود ولا قليل : « والله ذو الفضل العظيم » ..

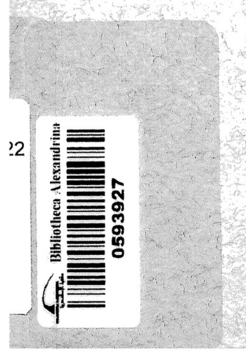
وهي دعوة فيها تحضيض واستجاشة واستثارة للسباق إلى الجنة والرحمة . تختم بها السورة ختاما يتناسق مع سياقها كله ، ومع الهتاف المكرر فيها لهذه القلوب كي تحقق إيمانها وتخشع لربها وتستجيب لتكاليف الإيمان في الأموال والأرواح . في تجرد وإخلاص .

* * *

وبعد فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة في خطاب القلوب البشرية ، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير . وهي في بدئها وسياقها وختامها ؛ وفي إيقاعاتها وصورها وظلالها ؛ وفي طريقة تناولها للموضوع وسيرها فيه جولة بعد جولة ، وشوطا بعد شوط .. هي في هذا كله درس بديع لأصحاب هذه الدعوة ، يعلمهم كيف يخاطبون الناس ، وكيف يوقظون الفطرة ، وكيف يستحيون القلوب !

إنها درس رباني من صانع القلوب ، ومنزل القرآن ، وخالق كل شيء بقدر . وفي هذه المدرسة الإلهية يتخرج الدعاة المستجابون الموفقون ...

تم الجزء السابع والعشرون ويليه الجزء الثامن والعشرون مبدوءا بقوله تعالى « قد سمع الله »


22
Bibliotheca Alexandrina
0593927